نبوة محمد ﷺ

في الاستشراق الفرنسي المعاصر

جاكلين شابي (أنموذجاً)

إعـداد

أ. د. عبد الحكيم فرحات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، حمداً يليق بجلال وجه ربنا وعظيم سلطانه، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شاء ربنا من شيء بعد، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين، نبينا وقدوتنا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه واهتدى بهداه.

أما بعد؛ فقد اصطفى الله نبيه محمداً ﷺ، وبعثه رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، فدعا إلى الله، وبلغ البلاغ المبين، بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما في صفته وأمره وخبره، مما استفاضت به أدلة الكتاب والسنة، على وجوه مختلفة. فلله الحمد على ذلك، ونسأله المزيد من فضله.

والواجب علينا - نحن المسلمين - أن نقوم لله مثنى وفرادى، ونبذل قصارى جهدنا في نشر السنة النبوية، وبيان السيرة الشريفة، بكل وسيلة شرعية ممكنة، لاسيما والعالم يزداد عطشاً لمعرفتها، ولن يبلغ الرِّي إلا بالورود على المعين الصافي: القرآن العظيم؛ والسنة الصحيحة، وهذا من أعظم ما يكون به توقير النبي ﷺ، وتعزيره، ونصرته، والدفاع عنه.

ووصلاً لحبل الاتباع والنصرة تشرفت الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها بتنظيم المؤتمر الدولي «**نبي الرحمة محمد** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » في مدينة الرياض، برعاية كريمة من خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود ـ حفظه الله ـ ومشاركة شخصيات علمية ودعوية وأكاديمية وإعلامية من مختلف دول العالم بأبحاث علمية، تنتظمها ثمانية محاور، ويندرج تحت كل محور موضوعات عديدة، تبرز جانباً مهماً من سيرته عليه الصلاة والسلام، وهو الرحمة، بكل دلالاتها، في الأحوال، والأقطار، والأزمان، والأشخاص، والأعراق، والأديان، والأجناس.

وبفضل الله وحده ما إن تم الإعلان عن المؤتمر إلا وطلبات المشاركة تتقاطر على اللجنة العلمية للمؤتمر من أصقاع العالم، تكتنفها التهاني الممزوجة بالفرح والبشرى، وقد عجز البنان والبيان عن كامل البيان، ولكن نتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بمحبة نبيه ﷺ، أن يجعلنا وإياهم في معيته في جنات النعيم.

ومن جنى هذا التواصل العالمي الذي تقوده الجمعية هذا البحث الذي نقدمه للقارئ الكريم ضمن سلسلة بحوث المؤتمر، والذي يشكل لبنة في البناء المعرفي التكاملي لموضوع المؤتمر. فأسال الله أن ينفع به، ويجزي كاتبه خيرا، ويزيده من توفيقه وهداه.

وبهذه المناسبة أرفع الشكر والتقدير لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وسمو ولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز، وسمو النائب الثاني صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز ـ حفظهم الله ـ على ما تحظى به المناسبات الإسلامية والعلمية من حسن الرعاية، وكافة التسهيلات، ومنها هذا المؤتمر، وأسأل الله أن يوفقهم لما فيه إعلاء كلمة الله، وعز الإسلام، ونصرة المسلمين.

والشكر موصول لمعالي وزير التعليم العالي الأستاذ الدكتور خالد العنقري، ومعالي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الأستاذ الدكتور سليمان أباالخيل، على إشرافهما وحسن توجيههما.

وفي الختام أشكر اللجنة العلمية برئاسة فضيلة الدكتور عبدالله الشقاري، على الجهود الكبيرة التي امتدت لما يقارب عاماً، في المتابعة والتقويم، سائلاً المولى أن يجعل ذلك حسنات مكتوبة في صحائف أعمالهم.

اللهم وفقنا لهداك، واجعل عملنا في رضاك، واجعلنا من أنصار دينك، وأتباع نبيك بإحسان، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

رئيس مجلس إدارة الجمعية

د. عبد العزيز بن محمد السعيد

* * *

المقدمة

هل نحن مقبلون على ثورة علميّة في دراسة السيرة النبوية؟ كثيرا ما يردُ هذا السؤال على المتتبعين لما يعد من أبحاث في هذا المجال خلال العقود الأخيرة؛ حينما يرونها تتوسل برؤى منهجية تخرج عما أُلف في العلوم الإسلامية التراثية، وتطمح إلى تفكيك المعتقد الإسلامي في النبوة المحمدية، وإعادة تركيب السيرة النيّرة، ودراسة مقرراتها ومسلماته دراسة نقدية، بعد أن استقرت في الوعي الإسلامي قرونا طويلة. وللأسف فأكثر هاتيك الدراسات تعد في مراكز غربية، ببريطانيا وأمريكا، وإسرائيل، وفرنسا، وهي من الكثرة بحيث أعدت لها فهارس عديدة(1)، وهذا ما يثبت أن النبوة المحمّدية قد صارت موضوعا خصبا لأبحاث الألفية الثالثة.

ورغم ذلك، فكثير من الباحثين المسلمين في عالمنا الإسلامي بعيدون كل البعد عن هاتيك الرؤى النقدية، لا يعرفون عنها شيئا، ولا عن رؤاها النقدية، ولا عن نتائجها المستجدة، ناهيك عمن يرفض الاطلاع على ذلك جملة

(1) Rubin, Coll. «The Formation of the Classical Islamic World», vol. 3 et 4, Variorum, Ashgate, 1998, v. infra, p. 33).

وتفصيلا، أو يدير لها ظهره لها بحجة أنها كفرٌ صراحٌ، لا يفلح صاحبه أبدا، وهذا ما يشكِّل في نظري خطرا حقيقيا على معطيات السيرة النبوية، ويمس بمقررات النّبوة المحمدية، ويشكك المسلمين في حلاوة إيمانهم، ويقف عائقا أمام تقدم الدعوة الإسلامية، وهذا ما يبين أن الدراسات المحمدية في أزمة حقيقية يغذيها المسلم والمستشرق معا؛ المسلم بعدم اطلاعه على ما جدّ من أبحاث ومناهج ورؤى نقدية، والمستشرقُ بإلمامه بما يفتقده المسلم المعاصر، وتحيّزه لرؤاه الوجودية والكونية، وهذا صلب الأزمة الحقيقية للدراسات المحمّدية، التي تحتاج منّا تداركا سريعا، يقوم على الإيمان العميق، والامتلاك للنفس، والاطلاع على المناهج النقدية قديمها وحديثها، ونقد ما جدّ من طروحات علمية، ولن يخيب من يعمل بذلك أبدا.

ولا شكّ في أنّ الجامعات الفرنسية من أهمّ هاتيك المراكز الغربية، التي تصدّت في العشرينيات الأخيرة لدراسة النبوة المحمّدية وكل مالها صلة بها، ويأتي في طليعتها أبحاث المستشرقة الفرنسية جاكلين شابي(**Jacqueline Chabbi**)، الأستاذة المحاضرة بجامعة باريس الثامنة(**Université Paris 8**) بفرنسا، اليهودية الأصل، التي أعدّت مقالات كثيرة حول الإسلام بالموسوعة الفرنسية الشهيرة، وألقت محاضرات عديدة حول الرسول ﷺ ونبوته، وألّفت

كتابين فيما يخص السيرة المحمدية، أولها بعنوان: (**ربّ القبائل، إسلام محمّد**)(١٩٩٨م)(١)، وهو كتاب مستخلص من رسالتها المقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية سنة١٩٩٢م، تحت إشراف المؤرخ اليهودي الشهير كلود كوهين (**Claude Cohen**)(٢). والكتاب الثاني بعنوانٍ مغرٍ ونبرة نابية(٣): «**القرآن المفكّك، صور توراتية في الجزيرة العربية**» (**Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie**) (٢٠٠٨)(٤)، سبرت فيه السيرة المحمدية والقرآن الكريم، وادّعت أن طريقتها هي الوحيدة التي تصلح لإعطاء صورة تاريخية وافية عن النبي ﷺ والقرآن الكريم(٥).

لقد وظّفت في هذين الكتابين مناهج نقدية معاصرة، لم يعرفها التراث

---

(1) Jacqueline Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, (Paris: Noêsis,1997).

(٢) هاشم صالح، **الاستشراق وأرخنة التراث**،

(http://www.hadatha4syria.org/news.php?action=view&id=4365)

(20/01/2010).

(٣) اتصلت بها مرارا للاستفسار فرفضت الرد، وعرضت عليها ترجمة كتابها سيد القبائل إلى اللغة العربية، فلم ترد أيضا.

(4) Jacqueline Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie (France: ,Fayard, 2008).

(5) «une vision sociologiquement et historiquement plus vraisemblable», Ibid, Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p389,

الإسلامي من قبل، وأسّست لنظريات دقيقة حول القرآن الكريم ونبوة الرسول ﷺ، تخالف ما استقر عليه البحث الإسلامي في السيرة المحمدية والعقيدة الإسلامية، إذ تدعي أن النبوة المحمدية صناعة إيديولوجية، وتقرر أن محمّداً النبي ﷺ أسطورة عربية، وتمثل معرفي للثقافات القديمة، حاكتها الأذهان العربية، وكرّستها الظروف الاجتماعية، ورعتها النظم السياسية، فإذا بمحمد الإنسان قد صار النبي الأسطورة، وأكدت أنه بعد بيانها (لا يمكننا بحال أن نرجع إلى الوراء-تقصد معتقداتنا-، وإلا إلى الأسطورة)[1]، وهذا جعلها تحتل مركز الصدارة في الاستشراق الفرنسي المعاصر، فترى الثناء الأكاديمي عليها متهاطلا، وإذا بالجامعة الفرنسية تكرم جهودها بدرجة الدكتوراه، وإذا بالمستشرقين يتهافتون بالثناء على ما أحرزته؛ يقول المستشرق الفرنسي المعاصر أندريه كوكي(**André Caquot**)، في تقديمه لكتابها: (كتاب أرادته موجّها للعامّة والمختصين في دراسة الإسلام، بما فيه من تحليلات وافية في النص، وتوضيحات دقيقة في الهوامش، وإضافات نفيسة في الملاحق)[2]، وقال فيه أيضا: (كتاب مثاليٌّ، وظف طريقة مقارنة الأديان بنفَس موضوعي، طريقة

(1) «Qu’on le sache, il n’est nul retour en arrière, sinon dans le mythe». Ibid, p405.

(2) Ibid, p22.

لامبتذلة ولا وثوقية، وبحذر كبير جنّبها الموضوعات الذاتية التي تصبو إلى ولوج نفس النبيﷺ)[1]، وقال فيها أيضا: (لقد بيّنت أنّ الإسلام، الدين الأكثر تاريخية، وربما أكبر الأديان، ليس إلا أرضا ممنوعة على علم تاريخ الأديان)[2]. كما أشاد -بأعمالها كثيرا- المفكر الحداثي الشهير محمد أركون وعدّها أنموذجا للبحث العلمي الجاد[3]. وقد هلّل بجهودها الدكتور هاشم صالح، تلميذ محمد أركون، وعدها تحديا حقيقيا للفكر الإسلامي، لا يجرؤ أحد على ترجمته[4]، يقول: (والكتاب كله ليس إلا محاولة راديكالية لأَرْخَنَة الخطاب القرآني. من هنا أهميته وشحنته التحريرية الهائلة للعقود المقبلة من السنين. ولا أعتقد شخصياً أن ترجمته إلى اللغة العربية ممكنة حالياً؛ لأنّ الوعي الإسلامي غير مهيأ لاستقباله أو تقبّله. مهما يكن من أمر فإنّ أبحاث الألماني فان ايس والفرنسية جاكلين شابي

---

(1) «Un livre exemplaire d'une saine méthode d'histoire des religions, ni irrévérencieuse ni dogmatique. Une grande prudence lui fait éviter les essais subjectifs visant à entrer dans l'âme du Prophète L'islam».Ibid.

(2) «L'islam, la plus historique peut-être des grandes religions, ne saurait être une terre interdite à l'histoire des religions».Ibid, p. 15

(٣) محمد أركون، **الفكر الأصولي واستحالة التأصيل**، تر: هاشم صالح، (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٢)، ص٤٤.

(٤) للعلم لقد تقدمت بطلب رسمي إلى الدكتورة لترجمة كتابها إلى العربية، فلم ترد، والله على ما نقول شهيد.

وسواهما من المستشرقين الأكاديميين قدمت لنا درساً بليغاً في إصباغ الصبغة التاريخية على الفترة التأسيسية الأولى للإسلام)[1].

وقد قدمها الإعلام الفرنسي كأستاذة كبيرة مختصة في دراسة أصول الإسلام وشخص النبي الكريم ﷺ وفق المناهج والرؤى الجديدة، تلك التي تثير حفيظة المسلمين[2]. ووصفتها بعض الدراسات الأكاديمية الفرنسية الجديدة بالسيدة الكبيرة (**La grande Dame**) تبجيلا وتقديرا لأعمالها النقدية[3].

---

(١) هاشم صالح، **الاستشراق وأرخنة التراث،**

(http://www.hadatha4syria.org/news.php?action=view&id=4365)

(20/01/2010).

(2) Revue Science et avenir, La légende Mohométane, Janvier 2003 (http://charlatans.info/mahomet.shtml#ref1(20/01/2010).

(3) (L'ouvrage très récent de Jacqueline Chabbi, Le Coran décrypté, Figures bibliques en Arabie est remarquable à plusieurs titres: il pointe sèchement toutes les lacunes et lâchetés qui défigurent le champ de l'islamologie actuelle consacrée aux origines du phénomène musulman; il assène des vérités scientifiques avec une fraîche brutalité et ose remettre en cause les bavardages imbéciles produits par des décennies de non-travail de recherche. Il faut lire cette grande dame quand elle interdit fermement aux érudits cléricaux d'empiéter sur lechap des recherches) ;Groupe de chercheurs scientifiques, Documents sur l`Islam, p7 (http://www.islam-documents.org/0.html#footnote77) (20/01/2010).

واعتذر عن السباب الوارد فيه، ولكن لابد منه للاطلاع على ما يفكرون فيه. وللفكاهة فقط، فقد اتصلت بأصحاب الكتاب للتساؤل حول بعض القضايا، فحذرني من=

وإن الباحث الموضوعي ليتساءل عن سبب رفض الباحثة في كتابها لمقررات العقيدة الإسلامية ومرويات السيرة المحمدية، أهو النبوة ودلائلها؟ أم المناهج الحديثة؟ أم ثمة شيء آخر وراء هاتيك الأقوال النقدية؟ ورغم جدّة نظريات هذه المستشرقة، واحتفاء النقاد والمستشرقين بها إلا أنها لم تلق اهتماماً يذكر بين نقادنا المسلمين، ولا أعرف أحداً منهم اشتغل بتتبع كتاباتها ونقد ما فيها، والله أعلم.

ومن هنا، فقد تبلورت إشكالية هذه المداخلة التي تصبو إلى تحليل أعمال المستشرقة جاكلين شابي، تبصر بحقيقة رؤيتها النقدية، وتكشف عن عدّتها المنهجية، وتقيّم نتائجها النقدية، باستخدام منهج تحليلي نقدي تارة، ومقارن تارة أخرى، وسأبرز نتائج السبر في المباحث التالية:

(١) أزمة الدراسات المحمدية وضرورة إعادة التأسيس.

(٢) جاكلين شابي: قراءة في المنهج المقترح.

(٣) مشروع تفكيك صورة النبي ﷺ.

(٤) النبي التاريخي، قراءة أنثربولوجية نقدية.

وهذا ما سأفصله بعون الله العليّ فيما يلي من بحث:

=المسلمين ومما يمكن أن يلحقوه بي من أذى!!!

المبحث الأول
أزمة الدراسات المحمّدية، قراءة في العوائق

تؤكد جاكلين شابي أن الدراسات الإسلامية تعيش حالة من التسييج العقدي والتخلف النقدي، تمنعها من استكمال ثورتها النقدية والتاريخية[1]، وتجعلها تنتظر ثورة علمية حقيقة تحررها، حتى تنفتح مغاليقها وتتعمق نتائج بحثها، يكون لها بالغ الأثر في فهم الذات والتاريخ والمعتقد الإسلامي[2]، على غرار ما حدث لليهودية والمسيحية، اللتين قطعتا أشواطا من النقد والتجدد طوعا أحيانا، وكرها أحيانا أخرى[3].

ويتبدى من خلال أعمال جاكلين شابي أن للدراسات المحمدية عوائق عديدة، (تواجه من يريد الوصول إلى دراسة مرحلة تاريخية قديمة العديد من العقبات، كما لو أن الوقت المنقضي بين عصر المؤرخ والعصر الماضي الذي يريد

(١) من حوار مع المؤلفة على هذا الموقع:

L'islam n'a pas accompli sa révolution critique et historique 'Jacqueline' Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010)

(2) Ibid.

(3) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p15.

دراسته يمنع من اكتشاف ما وقع)[1]، وأهم هذه العقبات: الوثائق المعتمدة، والباحثون المشتغلون بهذا المجال، والتفسيرات المتوارثة؛ ولكلٍ دورٌ في تأسيس تخلف هذا المجال المعرفي وتعميق تدهوره النقدي، وإن كان العنصر الأول، الوثائق المعتمدة، غائر الأثر يصعب تداركه؛ إذ إن أكبر مشكلة تواجه من يتصدّى للدّراسات المحمّدية قلة الوثائق العلمية التي يمكن اعتمادها في هذا المجال من البحث، فمعلوم أنّ النّبي ﷺ (٥٧٠-٦٣٢) كما تؤكد جاكلين شابي لم يترك سجلا مكتوبا، ولا وجادات أثرية، تثبت وجوده بسوالف الأيام، وتبصر بعقيدته، وتبين سمات دعوته، وما بين أيدينا من كتابات ووثائق لا يمكن الركون إليه في نظرها، ولا الاطمئنان إلى ما فيه[2]؛ بل ومن السّذاجة قبوله[3]، إذ لا تعدو في نظرها عن أن تكون روايات في الأصل، اعتراها ما يعتري الثقافة الشّفهية من نسيان وتغيّر وتحوير وابتداع، سيما في أول القرن الهجري الأول، حيث كان الناس يتواصلون بالمشافهة والرواية لا التدوين والكتابة، وهذا ما يضعف في نظرها قيمة الأحاديث النبوية، والمَرويّات الإسلامية عموما، وكل ما

(1) Jacqueline Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).
(2) Ibid.
(3) Ibid.

تبلور عنهما من كتابات وتأريخات، ويُحوجها إلى نقد علمي جاد(١).

ولهذه الأسباب، لا يمكن في نظر جاكلين شابي التّعويل على النص القرآني الكريم في تحقيق السيرة المحمدية، ولا على مصادر السنة النبوية الشريفة، إذ قد بقيا ردحا من الزمن من غير تدوين، تتناقلهما أجيال عن أخرى مشافهة لا غير(٢). ورغم أنّ التقليد الإسلامي يبرزُ النبيّ الأكرم ﷺ كمؤسسٍ للإسلام، مُمْلٍ للنص القرآني على كتّابه، راوٍ للأحاديث، وآمرٍ بتدوينه على قطع من الجلد والفخار، وأوراق النخيل، وعظام الكتف من الإبل، ومع ذلك تؤكد جاكلين شابي أن روايات الكتابة غير موثوقة، والصحيح في نظرها أنهما قد بقيا ردحا من الزمن ينقلان مشافهة، ولم يصيرا كتابا يتلى إلا في مرحلة متأخرة عما يروى في التقليد الإسلامي، في عهد بني أمية على وجه الدقة، حيث أمروا بجمع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مما علق بذاكرات الحفاظ، ومما تلقوه مباشرة أو بوساطة، وأخضعوهما لتنسيقات ولتعديلات كثيرة، حورت نصوص الحديث، ومست بحركات الإملاء القرآني وحروفه، وطالت محتواه الكريم أيضا(٣)؛ بغية

(1) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p29-32.
(2) Ibid, p22.
(٣) كما تروي العديد من كتب التقليد الإسلامي، راجع مثلا: جلال الدين السيوطي، **الإتقان** ١/ ١٦٤.

تأسيس مشروع إقامة المملكة الأموية الجديـدة(**Nouvelle empire**)، وبسط نفوذها على بقاع من العالم باسم الإيديولوجيا الإسلامية، وهذا ما جعلها تطلق على هذه النسخة المعدة من القرآن، اسم الفولجاتا القرآنية(**La Vulgate**)، مستعيرة الاسم الذي أطلقه القديس جيروم(**Saint Jerome**) على نسخة الكتاب المقدس التي تولى جمعها من النسخ المتداولة في عصره، لمّا راعه ما بينها من اختلاف، فهب لتداركه بالمقارنة بين النسخ الموجودة، والترجيح بين بعضها البعض[1]، وهذا ما يبين أن القرآن الحالي في نظر جاكلين شابي هو قرآن الأمويين لا قرآن محمد الشّفهيّ، ولا يعدو عن أن يكون نسخة منقحة من النسخ المتداولة في عصر بني أمية، ومسكين هو المسلم الذي يتعبد بالقرآن والسنة على أنهما قرآن النبي ﷺ وسنته، بينما هما في الحقيقة قرآن وسنة الأمويين لا غير[2].

وليست سيرة النّبي ﷺ في نظر جاكلين شابي بأحسن حالا من القرآن والمرويّات الإسلامية، إذ إنّ أول سيرة قد دونت بعد وفاة النبي ﷺ بأكثر من قرن من الزمن، ووازاها تدوين السنة النبوية، الّذي انتهى بالمدونات الحديثية الشهيرة، وهذا ما يثير في نظرها احتمال تغيير الرواة، وحضور الذّاتية، وفرضية

(1) P.M. Bogaert, La Bible latine des origines au Moyen Age. Aperçu historique, état des questions, Revue théologique de Louvain, 19, 1988, 137-159.
(2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p81-175.

الابتداع والاختراع، وكل ذلك في نظرها ثابت ومتعين في القرنين التاليين للبعثة المحمدية اللذين تجردا لبلورة تفاصيل أصول الإسلام بدقة، وإعادة بنائه بناء وهميا(**Fictif**)»[1]، بما يخدم الظروف السياسية الجديدة للدولة الأموية، ولذلك تراها تقول: (من السذاجة قبول ما جاء في هاتيك الروايات والتسليم بما فيها)[2]، الأمر الذي يقف عثرة أمام الباحثين؛ إذ كيف يستقيم بحث ولا وثائق مكتوبة؟ وكيف تبين رسومه ولا أثارات علمية؟ إن ذلك لأمر بعيد المنال[3].

ونتيجةٌ لكلّ ما سبق، فإنّ جاكلين شابّي تؤكّد أنّ المصادر الحالية للسيرة النّبوية لا يمكن التّسليم بها، ولا يمكن التعامل معها كمصادر أساسية في الدراسات المحمّدية؛ فهي لا تعكس الواقع التاريخي بقدر ما تعكس تصورات واضعيها عن النّبوة المحمدية[4].

---

(1) «Ce n'est qu'avec l'empire des Omeyyades (661-750) que la religion de Mahomet a basculé dans un autre monde dans lequel l'écriture est devenue prédominante. Le Coran a alors été mis par écrit, certainement à partir de fragments d'oralité conservés dans les mémoires. Dans les siècles suivants, la tradition islamique a couvert d'un luxe de détails les origines de l'islam et reconstitué un passé... fictif!», Ibid;p85.

(2) Ibid,p 90-175.

(3) Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

(4) Ibid.

والمعتقدات والتفسيرات الإسلامية المتوارثة هي ثاني العقبات التـي تفعـل فعلها في تأزيم الدراسات المحمدية، وتقتضي من الباحث حيطة كبيرة في التعامل معها؛ إذ(أكبر مشكلة تواجـه المـؤرخ أن لا يـترك التـاريخ المقـدس يحتـل مجـال البحث التاريخي، ولا شك في أنه لـيس مـن الـسهل دائـما مقاومـة الـضغوطات المحيطة، وعدم عبور المرآة لاكتشاف الذات، وهذا ما يوجب أن نكون على حذر من الافتتان بالموضوع)[1]؛ فزخرفها يخـدع الخبـير ناهيـك عـن المبتـدئ؛ تقـول جاكلين شابي: (حينما ترتبط ثقافة بدين حي مثل الإسلام، فـلا شـك في وجـود عقبات أخرى، عقبات معتقَد العصر الحاضر، والذي يعد هو الآخر مجرد وجهة نظر حول أحداث الماضي، سيّما ما تعلق بمرحلة نشأة الدين)[2]، كـما تقـول: (إنّ الإسلام تراث ثقافي عظيم، ومجموعة مـن التفـسيرات المتعاقبـة، والتـي تـشكل بعضا من العقبات، وكل تفسير دليل وشاهد على تـصورات عـصره، وهـذا مـا

(1) Le gros problème de l'historien est alors de ne pas laisser «l'histoire sainte» occuper le champ de la problématique historique. Il n'est pas toujours simple de résister à la pression ambiante et de ne pas traverser le miroir. Il faut alors se garder de trop de fascination pour son sujet. À défaut de cela, on finit par s'identifier à lui sans même s'en apercevoir, Ibid.

(2) «Lorsqu'une culture se rattache à une religion vivante comme l'islam, il existe encore d'autres obstacles. Ils sont ceux de la croyance au présent qui a évidemment un point de vue sur son passé et surtout sur la période de ses origines», Ibid.

يوجب أن نعرفها فحسب، لا أن نعتقد أنها تعطينا الأسئلة وأجوبتها؛ إنّ الماضي من منظور تاريخي لا يتحدث إلينا عبر القرون، إنه يكلّم نفسه فقط، ولا تعد النصوص المحفوظة إلا صدى له)[1].

ولما كانت الوثائق بهذه الرداءة، والتفسيرات بمثل هذه الزخرفة، تفترِض الباحثة شرطين فيمن يريد خوض غمار هذا المجال، علـه يستطيع تجاوز هذه العقبات، وهما: التحرر النقدي الذي يجنبه الذاتية والشطط، والتكوين العلمي الخاص الذي يؤهله لفتح أغلاق هذه الدراسات وتحليل وثائقها، وهذا عينه ما تراه جاكلين شابي مفتقدا في جل باحثي هذا المجال، مسلمين كانوا أم ومستشرقين على حد السواء، فلا غرابة أن صاروا فاعلين في تأزيم الدراسات المحمدية بضعفهم وحيفهم وتحيزهم وشططهم، فقد تعامل النقاد المسلمون مع هاتيك المصادر كأنّها مصادرُ منزلة موثوقة، ودججوها بسياجات دوغماتية[2]،

(1) «Pour l'islam, est en même temps une grande tradition culturelle, les interprétations successives font partie de ces obstacles. Mais, en même temps, chacune sert de repère et de témoin de son époque. Il faut simplement les reconnaître pour ce qu'elles sont, en elles-mêmes, et ne pas croire qu'elles nous apportent les questions et les réponses. D'un point de vue historique, le passé ne nous parle pas par-delà les siècles. Il se parle à lui-même, et les textes conservés nous en donnent un écho».Ibid.

(٢) عادة ما تترجم الدوغماتية(Dogmatisme) بالعقائدية، والوثوقية، ويراد بها اعتقاد=

ظنا منهم أنّ القرآن الحالي هو قرآن النبي ﷺ المنزل، لما (أقنعهم بأسلوبه واتساقه العجيب، أنه وحي إلهيّ التنزيل، حوى الحقيقة التاريخيّة التي لا عوج فيها أبد الدهور، وصار عقيدة مدجّجة بسياّجات دوغماتية، تحول بينها وبين أي نقد)[1]، كما ظنوا أن السنة النبوية المعروفة أقوالُه ﷺ حقيقة، وأنّ السيرة العطرة المشهورة تاريخه ﷺ الفعلي، بينما الحقيقة غير ذلك، فضلا عن أن ما وظفوه من مناهج لا يعدو عن أن يكون طرقا تمجيدية وغير تاريخية، بعيدة كل

=امتلاك الحقيقة المطلقة من غير استناد إلى براهين يقينية، ورفض رأي الآخر من غير حجة، وقطع بأن ما حصله من معارف لا يقبل النقد ولا النقاش ولا التغيير، وهذا ما يجعلها تكافئ التعصب، وتعادل ثقافة الانغلاق والتسلط، وتعادي فتح قنوات الحوار، وتؤسس لازدراء الآخر وتخوينه، وعدم احترام حقه في الاختلاف، وهذا ما يثبت أنها طريقة تفكير تضفي على ما اعتقد الباحث قداسة وتنأى به عن فحص أسسه، وتحليل أدلته، علما أنها يمكن أن تصير في الممارسة ادعاءً وسبابا يلحقه أحدهم بالآخر إذا لم يقتنع بما عنده، وهذا ديدن كثير من الباحثين.

أما السياج الدوغماتي، فهو تركيب من سياج ودوغماتية، وهو اصطلاح ابتكره محمد أركون، يشير به إلى حالة من سجن نفسه داخل عقائد إيمانية، يعدها صحيحة مطلقة، ويحكم على ما عداها بالبطلان المطلق.(محمد أركون، **قضايا في نقد العقل الديني**، ص٤٩-٥٠).

(1) Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

البعد عن العلمية[1].

ولكل ذلك لا تقبل جاكلين شابّي إجماعات الأمّة الإسلامية حول القرآن الكريم، ولا مقررات العقيدة الإسلامية حول النبوة المحمدية، ولا روايات السّير الإسلامية حول تفاصيل الحياة الأحمدية، لفقدانها لأساس علمي رصين؛ ولذلك تعدّها ضربا من السذّاجة العلمية، التي ينبغي أن ينأى عنها البحث العلمي، مقتفية في ذلك خطى بعض المستشرقين والمشتغلين بالدراسات المحمدية في فرنسا، كمحمّد أركون، ويوسف شلحت، وكلود كوهين، وغيرهم.

وليس حال المستشرقين في نظر جاكلين شابي بأحسن حالا من النقاد المسلمين، إذ جلهم هواة بعيدون عن مفهوم التخصص العلمي الدقيق، فليس لهم التكوين العلميّ الكافي؛ تجد فيهم المؤرخ، والفيلسوف، والنحوي، والأديب، ورجالات الاستعمار، وغير ذلك[2]، ولذلك تراهم(لحد الآن، قد تركوا أنفسهم عرضة للتأثر بالنصوص الإسلامية، على الرغم مما فيها من العجائبية)[3]. وساروا على خطى النقاد المسلمين في التسليم لتلك المصادر الإسلامية، والوثوق بما فيها من معلومات تاريخية، وهذا ما أزّم الدّراسات المحمّدية في نظر جاكلين شابي،

(1) Ibid and Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p81-175.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

ومازال يؤزّمها دهرا طويلا[1].

ولقد وفقت جاكلين شابي في تشخيص وجود أزمة في الدراسات المحمدية والدراسات الإسلامية عموما، وأخفقت في ضبط أسبابها؛ إذ هي في نظري، ناشئة عن ركود الدراسات الإسلامية في جل الجامعات الإسلامية ودخولها في التكرار والاجترار، وجهل أكثرها بالمناهج المعاصرة، وظهور فئة من الباحثين الحداثيين المتسلحين بالمناهج المعاصرة والفاقدين للرؤية والمعرفة الإسلاميتين، وهذا ما أنشأ خطابين مختلفين، الأول تقليدي غير واع بما يجري في العصر، والثاني في قلبه شيء، تمرس بالمناهج المعاصرة، ونسي أو تناسى أن ينظر في مناهج نقادنا الأوائل، الأمر الذي يحتاج في نظري إلى تكوين جديد في الجامعات الإسلامية، يستطيع أن يرتفع بمستوى طلابها كي يقوم بواجب الشهادة الشرعية في هذا العصر.

* * *

(1) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, p22.

المبحث الثاني

جاكلين شابي: قراءة في المنهج المقترح

تقترح جاكلين شابي لتجاوز أزمة الدراسات المحمّدية في غياب الأدلة الأثرية، تأسيس دراسات علمية جديدة، تنهض بدراسة أصول الإسلام ومعتقداته في سياقاتها التاريخية، تقوم بما يقوم به المرمّم مع الصور القديمة، إذ تراه يقدم على لوحة فنية تكسوها ألوان زاهية، فيفحصها وينبشها وينقشها، كي يصل إلى ألوانها الأصلية، ومثلها السيرة تماما(١).

إن جاكلين شابي تريد أن تنظر في المعتقدات الزاهية التي يراها المسلمون في شخص محمد ﷺ، تحقق فيها وتنظر، حتى تعثر على ملامحه الحقيقية، تلك التي غارت بين ركام الأدب التمجيدي الإسلامي(٢)، وهذا ما جعلها تعيب على النقاد المسلمين تخوفهم من اعتماد النقد التاريخي، على العكس من اللاهوتيين المسيحيين واليهود الذي فتحوا معتقداهم لتساؤلات العقلانيين طوعا وكرها(٣).

(1) Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).
(2) Ibid.
(3) Ibid.

ولقد أوضحت جاكلين شـابي في تحـذيرها الـذي صـدرت بـه كتابهـا، أنّ هدفها هو (إعادة قراءة النصوص الإسلامية، وإخضاعها لمعايير النقد التاريخي، وما تقترحه العلوم الإنسانية من أدوات، وإزاحة هالـة التقـديس التـي يـضفيها المسلمون على رسول الله[ﷺ]، ليصير إنسانا مرة أخـرى كـما كـان ذات مـرة، ولذلك تصرح أنها(تُؤَنْـسِنَ محمـد)[1]؟ اعـتمادا عـلى مـنهج مركـبٍ مـن المـنهج الأنثربولــوجي[2] (**Approche anthropologique**)، والمــنهج التــاريخي النقـدي(**Une approche historico-critique**) لدراسـة النبـوة المحمديـة وأصول الإسلام في سياقهما الثقافي الاجتماعـي، بوصـفهما قـضية مركبـة صـعبة التناول، وتلح على ضرورة استخدام الأنثروبولوجيا في دراسـة هـذا الموضـوع، وترى فيها المنهج الأصلح لمثـل هـذه القـضايا، والمـنهج الوحيـد الـذي يعطينـا المفاتيح اللازمة لاكتشاف الثقافات الأخرى والمراحل الفكرية وتطور المـذاهب

---

(1) «J'ai humanisé Mahomet».Ibid.

(٢) المراد بالمنهج الأنثروبولوجي المنهج الذي يوظفه علـم الانثروبولوجيـا (علـم الإنـسان) في تحليـل الثقافـات الإنـسانية تحلـيلا كليـا، يحـيط بمختلـف الجوانـب الإنـسانية، النفـسية والبيولوجية والبيئية والاجتماعية، والثقافية، وغيرها، بواسطة العديـد مـن طـرق البحـث، منها البحث الميداني، والبحـث التـاريخي، والبحـث المقـارن، والبحـث المعـرفي، وغيرهـا، ولتراجع المصادر المختصة لمعرفة المزيد.

المختلفة، دون انبهار بها ولا ازدراء؛ تقول: (في الحقيقة، الطريقة الوحيدة لفهم شخصية محمد[ﷺ]، هي تطبيق معايير الطريقة الأنثروبولوجية، ووضعه[أي الرسول ﷺ] في سياقه الاجتماعي الحقيقي، لا في سياق يبالغ في تقدير الظاهرة الدينية)[1]، وذلك بإعادة وضع النبوة المحمدية والقرآن الكريم في سياقهما التاريخي[2] **(mise en contexte)** ، ودراستهما في سياق التلقي الأول، السياقِ القبلي الذي توجّه إليه الخطاب القرآني أولا، وقراءتهما في ظرفهما التاريخي[3]، وهذا ما تسميه قراءة المشهد **(lecture du paysage)**؛ أي المشهد التاريخي الذي ظهر فيه الإسلام، وما كان عليه إبان سنة ٦١٠م، ساعة الوحي إلى النبي ﷺ؛ في تلك الصحراء العربية، البدوية القبلية، الوثنية النائية، والتي صارت فيما بعد مركزا للإسلام، فتراها تحقّق في سمات المجتمع العربي آنذاك، ومؤسساته الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية، كما تظهر من الكتابات المعاصرة للوحي أو التالية له مباشرة، لا كما تصوِّرها الكتابات الإسلامية

(1) «En effet, le seul moyen de comprendre le personnage, c'est de lui appliquer une grille de lecture anthropologique. De le remettre dans son contexte social réel, et non dans un contexte ou le fait religieux est surestimé. », Ibid,and Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahome, p 19-20.
(2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahome), p 19-20.
(3) Ibid, p 22.

اللاحقة، تقتفي كل ما يروى من أساطير ذهبية، وتكشف عوارها، ولا معقولها التاريخي"[1].

وهذا ما يبيّن أن مشروع جاكلين شابي مشروع تاريخي وأنثروبولوجي في الآن ذاته؛ يفكك النصوص المقدسة الإسلامية من الداخل بمنهجية وأمانة علمية (كما تدعي)، ويضعها في سياقها التاريخي بما فيه من إشارات تاريخية إلى الأسماء والحوادث والآثار والمؤسسات والأفكار والرموز، ويثير حولها العديد من الأسئلة الأنثروبولوجية، بالبحث عن المفاهيم والمؤسسات الاجتماعية، كالدين والدولة والمجتمع والقبيلة، والخيال، والمقدس والطبيعة والعقل، والرموز، وغيرها[2]، ولذلك قال الباحث الفرنسي كرستيان روبن(**Christian Robin**) (في هذا الكتاب-أي كتاب رب القبائل، إسلام محمد-، تحاول جاكلين شابي أن تبحث كمؤرخة، دون أن تهمل الفوائد التي يمكن للطريقة الأنثربولوجية أن تسديها)[3].

وترى جاكلين شابي أن هذا المنهج خطير جدا على الخطاب الإسلامي فيما

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Dans cet ouvrage, Jacqueline Chabbi veut faire œuvre d'historienne, sans négliger les enrichissements qu'apporte la démarche anthropologique, Christian Robin, Chabbi Jacqueline:: le seigneur des tribus, in BCAI 18(2002), 15.

يخص الدراسات المحمّدية[1]، بقيامه على مبدأ التحرر الذي يؤمن بأنه (ليس للمؤرخ أن يُعطي درسا لعالم الدين حتى لو كان عليه أن يدرس نمط تفكيره ومذهبه، ولا أن يتلقى منه درسا تحت أي سلطة، يمكن أن تمنع من طرح أسئلة معينة)[2]، واشتغاله في مجالات معرفية مدجّجة بمواقف عقدية مسبقة، ونظم سياسية حافظة. وما أثرناه يبين أن جاكلين شابي تحاول أن تقوم بإعادة اكتشاف ما حجب على الناس قرونا طويلة، ورد الاعتبار للكلمة المحاصرة والمقوضة، وإثبات تلثم الأنظمة الحاكمة بعباءات دينية، تبريرا لاتجاهاتها السياسية،

---

(١) وقد تابعها في ذلك هاشم صالح كعادته، فهو يصفق لكل طاعن، يقول: (ولا أعتقد شخصياً أن ترجمته إلى اللغة العربية ممكنة حالياً؛ لأنّ الوعي الإسلامي غير مهيأ لاستقباله أو تقبّله. مهما يكن من أمر فإنّ أبحاث الألماني فان ايس والفرنسية جاكلين شابي وسواهما من المستشرقين الأكاديميين قدمت لنا درساً بليغاً في إصباغ الصبغة التاريخية على الفترة التأسيسية الأولى للإسلام). راجع: هاشم صالح، **الاستشراق وأرخنة التراث**،
http://www.hadatha4syria.org/news.php?action=view&id=4365 (20/01/2010).

(2) Un historien n'a pas de leçon à donner à un théologien, même s'il doit à l'évidence étudier son mode de pensée et sa doctrine. Bien entendu, il n'a pas non plus à recevoir de leçon de lui, en vertu d'un quelconque principe d'autorité qui interdirait de poser certaines questions), Jacqueline Chabbi, une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

وتأسيسا لسيطرتها الغاشمة على حياة الناس والشعوب الإسلامية خلال الفترات التاريخية المتعاقبة[1].

ولقد وظّفت جاكلين شابي في تحليلها للنبوة المحمدية والسيرة الشريفة العديد من طرق التحليل الأنثروبولوجية، التي لا يمارسها الفكر الإسلامي المعاصر إلا قليلا، كالطريقة التاريخية لتحليل البيئة الجاهلية والسيرة المحمديّة، وطريقة الفيلولوجيا[2]، لتحليل العديد من الألفاظ القرآنية، والطريقة المقارنة لدراسة العقائد والشرائع، وطريقة أسماء المواقع(**Toponomie**)، واعتمدت العديد من المفاهيم الأنثروبولوجية كنماذج تحليل لدراسة السيرة النبوية الشريفة؛ أهمها الذاكرة الاجتماعية (**mémoire social**)، والمخيال الاجتماعي (**Imagination sociale**)، بوصفهما أداتين فاعلتين لفهم تكوّن ثقافة مجتمع، وإدراك كيفية تفاعلها مع تاريخ ذاتها، ومع الثقافات الأخرى[3].

(1) Ibid.

(٢) عادة ما تترجم الفيلولوجيا بفقه اللغة، ويراد بها تتبع تاريخ وأصول الكلمات شكلا ومعنى، ودراسة النصوص دراسة تاريخية مقارنة، والنظر في تاريخ دلالتها المختلفة، وإعادة تشكيل اللغات المنقرضة والميتة، اعتمادا على التاريخ والمقارنة، بالاستعانة بمختلف العلوم اللغوية والأدبية، وللاستزادة، تراجع المصادر المختصة.(راجع:

(٢٠١٠-٤-٥)(http://en.wikipedia.org/wiki/Philology

(3) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p1-22.

وظهرت تطبيقات هذا المنهج في كتاب جاكلين شابّي بعنوان: «**محمد، رب القبائل**» (**Mohamet, seigneur des tribus**)، بأقسامه الأربعة، أولها: «**القرآن ووسطه الأصلي**» (**Le Coran et son milieu d'origine**)[1]، يليه قسم بعنوان: «**بناء الماضي، النصوص المروية والنصوص الأخرى**» (**La construction du passé, textes d'après et d'alentour**)[2]، ثم قسم ثالث بعنوان: «**محمد المتنكر له**» (**Le prophète dénié**)[3]، ثم قسم رابع أخير بعنوان: «**صراعات وطقوس**» (**Des combats et des rites**)[4]، لتصل بعد ذلك إلى خاتمة[5].

ولقد خصصت جاكلين شابي القسم الأول من كتابها: «**القرآن ووسطه الأصلي**» (**Le Coran et son milieu d'origine**)[6]، لإعادة دراسة سيرة النبي ﷺ في فضاء الحياة «**espace de vie**»، تناولت في فصلين متتالين: «الفضاء المكي» «**L'espace Mekkois**»، و«وضعية القرآن [الكريم]» «**Le statut du Coran**»، حللت فيهما فيها «القرآن [الكريم] ووسطه

(1) Ibid, p. 29-79.
(2) Ibid, p. 81-175.
(3) Ibid, p. 177-273.
(4) Ibid, p. 275-387.
(5) Ibid, p. 389-411.
(6) Ibid, p. 29-79.

الأصلي»**«Le Coran et son milieu d'origine»** ، وبيّنت كيف أن النبـوة المحمدية والنص القرآني قد تبلورتا في وسط ثقافي، تهيمن فيه الصحراء، وتتـسم فيه الثقافة بالانغلاق والانعزال(1).

وفي القسم الثاني من كتابها المشار إليـه: «**بنـاء المـاضي، النـصوص المرويـة والنصوص الأخـرى**» **«La construction du passé. Textes d'après et d'alentour»**(2)حاولت جاكلين شابي اكتشاف الطبقـة الأولى مـن التقاليـد الإسلامية، وإثبات أن عملية إعادة بناء الواقع الإسلامي الماضي، تمت في مرحلة الإسلام الإمبريالي (تقصد الأمويّين)**(l'islam impérial)**، وذلك عـبر ثلاثـة فصول: خصصت الأول منها لدراسـة النـصوص المؤسـسة للـسيرة المحمديـة: الـنص القـرآني والأحاديـث النبويـة والـسيرة الـشريفة، وكـذا الإسرائيليـات(3) **«Les récits des fils d'Israël»** ، كما خصّصت فصلين آخرين لدراسة انتقال المعرفة الإسلامية من طور المشافهة إلى طور الكتابة، وتتبعت أثر ذلك على الفكر الإسلامي، عنونت الأول مـنهما: «**مـن الكـلام إلى الكتابـة، القـضايا التاريخيـة**» **«De la parole à l'écriture. Les enjeux historiographiques»**،

---

(1) Ibid, p. 31-32.
(2) Ibid, p. 81-175.
(3) Ibid, p. 96.

والثاني: «**نصوص التاريخ المقدس وسياقات الخلافة**» **«Textes d'histoire sacrée et contextes califaux»**، واعتمدت في تحقيق ذلك على انتقاء أمثلة من نصوص الفكر الإسلامي المتعاقبة، تقتفي مضامينها وتحلل آلياتها؛ كي تبرز دورها في إعادة بناء الخيال الاجتماعي الإسلامي حول حقيقة الإسلام وأصل النص القرآني ونبوة محمد ﷺ.

وفي القسم الثالث: «**محمد المتنكر له**» **(Le prophète dénié)**(1)، اهتمت جاكلين شابي بتتبع خصوصيات صورة النبي المكية **«La figure mekkoise de Mahomet»**، وميزت بين ثلاثة تطورات: **صورة الممسوس** « **Les djinns dépossédés**»، وصورة **الموعود بالملائكة الموعودين والمخذول بالحلفاء** « **Anges promus, alliés déchus**»، ثم **صورة الحرب الكلامية بين النبي** ﷺ **وقريش**«**La guerre des mots, Mahomet et Quraysh**».

وفي القسم الرابع: **القتال والطقوس**«**Des combats et des rites**»(2)، قامت جاكلين شابي بتحليل السيادة القبلية«**La seigneurie tribale**»، والتفكيك الأنثربولوجي لزيارة الحجر الأسعد«**La visite au bétyle**»،

(1) Ibid, p. 177-273.
(2) Ibid, p. 275-387.

والحج«**Le grand pèlerinage**» .

وفي الأخير جعلت **خاتمتها** خطابا حول منهج دراسة الإسلام، وأكدت أن طريقتها هي الوحيدة التي تصلح لإعطاء صـورة اجتماعيـة وتاريخيـة أقـرب مـا تكون من الواقع[1]. فهل حققت ذلك فعلا؟ نترك الجواب للمباحث التالية:

* * *

(1) «une vision sociologiquement et historiquement plus vraisemblable», Ibid, 389.

المبحث الثالث

مشروع تفكيك صورة النبي ﷺ

من النبي محمد ﷺ؟ تجيب جاكلين شابي: إن صورة محمد ﷺ، التي نعرفها الآن قد تبلورت عبر تراكمات معرفية متتالية، وتحت ضغوطات سياسية وثقافية متوالية، حتى صارت على ما هي عليه الآن، وهذا ما يبدي أن الصورة الحالية للنبي ﷺ في تصور جاكلين شابي لا تمثل صورة النبي التاريخية بقدر ما تمثل تصور المسلمين عنه. إنها تركيب معرفي شديد التعقيد، تغيب فيه شخصية النبي الحقيقية تحت ركام من الطبقات المعرفية المكدسة المضافة عبر العصور، ولذلك تحتاج من الباحث تنقيبا دقيقا ونفسا متأنيا، حتى يستطيع الكشف عن هاتيك الطبقات، ويفحصها واحدة واحدة، ويسبر خصائصها، ويحدد تاريخها التكويني، وحينئذ ستظهر صورة النبي التاريخي الذي عاش في قبائل البلاد العربية، وستتجلى ملامحه الغائرة تحت الأنقاض، تضاهي في ذلك عمل المنقب في الطبقات الجيولوجية؛ إذ تراه يقدم على مغارة غاب بابها، فيبدأ في التنقيب والبحث حتى يجد بابها الأصلي، ثم ينبش وينقب حتى يلج الباب، وثمة سيعرف ما بالمغارة. ولذلك كثيرا ما تجد جاكلين شابي تستخدم مفاهيم

جيولوجية في التحليل من باب المضاهاة ذاتها، وتذكرنا بجهود المرحوم الدكتور عبد الوهاب المسيري ومنهجه الجيولوجي في دراسة اليهودية بموسوعته الشهيرة حول اليهود واليهودية.

وللبحث في طبقات المعرفة الإسلامية حول النبي ﷺ تدعو جاكلين شابي إلى ضرورة قراءة النصوص في ضوء العلوم الإنسانية، وتوثيقها في ضوء ما استجد من معلومات حول القرآن الكريم، للبحث عن النبي التاريخي والتنقيب في المعرفة الإسلامية، على غرار ما هو موجود في الدراسات اليهودية والمسيحية من بحث حول موسى التاريخي، والمسيح التاريخي.

وتميز جاكلين شابي في تنقيبها بين أربع صور للنبي ﷺ على الأقل، وهي:

(١) صورة السير النبوية.

(٢) صورة الحديث النبوي الشريف.

(٣) صورة القرآن الكتابي.

(٤) صورة القرآن الشفهي.

وسأتناولها كما يلي:

١. صورة السّير النبوية الشريفة:

الصورة التي ترسمها كتب السير النبوية لشخص النبي الكريم ﷺ،

وتشحذها في ذهن المسلم التقليدي، أيا كانت فرقته. صورة تقدم محمد ﷺ كسليل الأنبياء إبراهيم وإسماعيل عليهما الإسلام، أنبأه الله بجبريل، وآتاه من المعجزات الشيء الكثير، سيما القرآن الذي تحدى به العرب، رسالته شاملة للعالمين، تلك الصورة التي تعدها جاكلين شابي أجمل من تكون من أن تكون حقيقة[1]. بدأت تتبلور بعد قرن من وفاة النبي ﷺ، معتمدة على الروايات العجائبية، ثم دونت فإذا هي نصوص تحوي صورا ثابتة عن الشخصية المحمدية، تستند إلى ذهنية عجائبية ومنطق إيماني ومواقف مسلمة، وتفتقد **الأنسنة**(التعامل مع النبي ﷺ كإنسان)، و**الأرخنة**(البحث عن الأصول التاريخية) **والتسييق**(الوضع في سياق)، وجل ما أنتجه الفكر الإسلامي المعاصر في نظرها هو امتداد أمين لهذه النظرة التبجيلية[2]. وهي تشيد هنا بموقف المعتزلة من السنة النبوية، مع أن موقفهم يباين موقفها[3]، ومهمة مشروعها هي هتك زخارف هذه الصورة والكشف عن دجلها، وإرجاعها إلى الإنسانية والتاريخية

(1) Ibid, p29-79.

(2) «Jacqueline Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

(3) «Ce furent les partisans de la double référence au Coran et aux hadiths qui l'emporteront, vraisemblablement dans la mesure où ils semblaient apporter réponse à tout, sans débat excessif», Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p 35.

والسياقية مرة أخرى.

٢. صورة الحديث النبوي الشريف:

تلك الصورة المبثوثة في المدونات الحديثية، التي تصف النبي ﷺ، وتخبر عن أصله، وتروي أقواله وأفعاله، تبلورت تحت إشراف المملكة الجديدة (**nouvelle empire**)، حيث دخل الإسلام عهد الكتابة، فشرع في تدوين السنة النبوية مما بقي راسخا في ذاكرة الحفاظ[1]. وتعد جاكلين شابي هذه الصورة أفضل حالا من صورة السير، وأقرب ما يكون إلى الصورة الحقيقية للنبي محمد ﷺ، ومع ذلك لم تسلم في نظرها من سمات صورة السير النبوية، فقد بدأت معرفة شفهية، ثم صارت كتابة بإشراف الحكم الأموي بعد أن اعتراها التحوير والتغيير والتبديل والكذب والتسييس، فتراها عكست ثقافة ناقليها وواضعيها من عجائبية، وسذاجة تحليلية، ونظرة تبجيلية، وأطماع توسعية، وهذا جعل المعتزلة يرفضونها ذات يوم ويعدونها معرفة دخيلة منتحلة، بما عندهم من فهم تنويري على حد قول جاكلين شابي[2].

٣. صورة النص القرآني الكتابي:

وهي الصورة الثالثة التي يعثر عليها تنقيب جاكلين شابي، وتراها أقرب ما

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.

تكون من الحقيقة والواقع التاريخي، تقول: (يمكن الاعتقاد أن النص القرآني ينتمي إلى طبقة سردية، يمكن عدها الأقدم على سبيل الإجمال، والأقرب إلى الأصل العربي السليم)(1)، وتقصد بها صورته في المصحف العثماني؛ إذ إن جاكلين شابي، اعتمادا على أبحاث معاصرين، منهم فرانسوا ديبوش(**François Deroche**)، وألفرد لويس(**Alfred Louis**)، تؤكد أن النص القرآني لم يدوّن في عهد رسول الله ﷺ، ولم يعرف التدوين إلا في مرحلة متأخرة عما يروى في التقليد الإسلامي، تقول في ذلك: (يظهر أن النص القرآني قد ثبت بسرعة، وربما في نهاية القرن الأول الهجري(السابع الميلادي)؛ أي تقريبا ثلاثة أرباع قرن بعد وفاة محمد[ﷺ]، وربما لاحقا بكل تأكيد، كما تؤكد التقاليد الإسلامية)(2)؛ أي أنه لم يصر كتابا إلا في عصر الأمويين، حين صارت الكتابة رائجة، فإذا به يجمع من صدور الحفاظ، ويخضع لتغييرات وتعديلات تلبي أطماع المملكة الجديدة(3). ويظهر النبي ﷺ في هذه الصورة كرسول جاء بدين عالمي جديد لكل الناس أينما كانوا(4)، وسنعود لنقد رأيها لاحقا.

---

(1) «On peut penser cependant que c'est le texte du Coran qui appartient à la couche narrative globalement la plus ancienne et la plus proche du substrat proprement arabe»,Ibid, p 35.

(2) Ibid, p33.

(3) Ibid, p33-35.

(4) Ibid.

٤ . صورة القرآن الشفهي:

وتقصد بها جاكلين شابي النص القرآني قبل تدوينه، تمييزا له عن القرآن الكتابي الذي صار متداولا بعد ذلك؛ إذ القرآن الكريم في نظرها لم يدون إلا بعد وفاة النبي ﷺ بثلاثة أرباع قرن على أقل تقدير، ظل فيها ينقل مشافهة، وهذا ما عرضه للتحوير، والتغيير، والتسييق، وأعطاه معاني جديدة، لم يُردها السياق الأول(١). ولذلك ترى جاكلين شابي أن النص القرآني الحالي نسخة معدلة من القرآن الأول، وخضع لتعديلات متكررة، أهمها ما وقع تحت رعاية الدولة الأموية(٢).

وللتمييز بين القرآنين الكتابي والشفهي، تعتمد جاكلين شابي على مدونة المصحف العثماني، وتحاول أن تضعها في سياقها الذي ظهرت فيه(**Mise en contexte**)(٣)، تقصد سياق الصحراء والبيئة القرشية، لتعيد قراءة النص القرآني من جديد، وتحاول أن تكشف العناصر الغائرة تحت كل الصور النبوية السابقة، التي تميز ملامح محمد ﷺ الإنسان، لا النبي كما يعرضه الفكر الإسلامي(٤)، وتلك أكبر معضلة تواجه الباحث في هذا المجال(٥).

---

(1) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p19-20.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid.
(5) «L'énigme demeure donc, jusqu'à nouvel ordre, des conditions précises de la mise par écrit du Coran même si les raisons qui firent

ويمكن تلخيص تصورات جاكلين شابي حول الصور المحمدية في البيـان التالي:

٤	السير النبوية
٣	الحديث النبوي
٢	القرآن الكتابي
١	القرآن الشفهي

ملخص صور النبي في رؤية جاكلين شابي

وننبه هنا إلى أن اللون القـاتم يـشير إلى مـدى بعـد الـصورة عـن الحقيقـة التاريخية، على العكس من اللون الأبيض، وسنفرد المبحث التـالي لتحليـل هـذه الصور الشريفة.

وننبه هنا إلى أن جاكلين شابي قد جانبت الصواب في التمييـز بـين الـصور المحمدية الأربع، واعتمادها عـلى الطعـن في توثيـق المـصحف الـشريف والـسنة النبوية، وادعاء تأثرهما بالأنظمة السياسية الحاكمة، والتشكيك في كل النصوص الإسـلامية حـول القـرآن الكـريم والـسنة النبويـة، والانـسياب مـع النظـرة

aboutir le processus ont une chance de s’expliquer dans le contexte impérial ommeyade face à Byzance», Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p 35.

الاستشراقية المعاصرة في إنكار التدوين النبوي للقرآن الكريم، إذ تقول: (ويظهر أن النص القرآني قد ثبت بسرعة، وربما في نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)؛ أي تقريبا ثلاثة أرباع قرن بعد وفاة محمد[ﷺ]، وربما لاحقا بكل تأكيد، كما تؤكد التقاليد الإسلامية)[1]، وحجتها هنا الانتقاء غير المبرر علميا، لتأكيد تغيير القرآن وتحريفه[2]، فتراها كعادة المستشرقين تركن إلى ما يروى من اختلاف مصاحف الصحابة، والتهويل بحادثة إحراق الخليفة عثمان رضي الله عنه للمصاحف المعروفة، اعتمادا على دراسات فرانسوا ديبوش(**François Deroche**)، وألفرد لويس(**Alfred Louis**)، وقبلهما آرثر جفري(**Arthur Jeffery**)، ممن جمعوا الاختلافات المنسوبة إلى المصاحف الفردية لبعض الصحابة، أمثال: ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وحفصة، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت، وغيرهم، رضي الله عنهم، وكذا الاختلافات المنسوبة إلى بعض مصاحف التابعين، واعتمادهم الآحاد والشاذ، والضعيف والمنقطع، والمتروك والمكذوب والموضوع، جمعوها

(1) «Pourtant, si le texte du Coran paraît assez vite stabilisé, probablement à la fin du 1er siècle musulman (VIIe s. apr. J.-C.) soit environ trois quarts de siècle après la mort présumée de Mahomet et, certainement plus tard, en tous cas, que l'affirme la tradition musulmane»f, p33.

(2) Encyclopédie de l'Islam , 2ème édition 1985 (5/405).

من مختلف المصادر الإسلامية القديمة، سيّما الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، وكتاب المصاحف لابن أبي داود، وتفسير الطبري المشهور. وإذا بها -أي جاكلين شابي- تتخذ مما ورد فيها من روايات متعارضة حول جمع القرآن الكريم مدخلا للتشكيك حول التدوين النبوي للقرآن الكريم، وتدوينات الصحابة له، وتدعي تأخر التدوين، وتميز بين القرآنين الكتابي والشفهي، وتؤكد كتابة وتحريف بني أميّة للقرآن الكريم(1)، غير معيرة الاهتمام إلى أن جل جامعي هذه الروايات قد رووا كل ما بلغهم من أخبار ذات صلة بجمع القرآن وأخبار اختلاف مصاحف الصحابة دون تصحيح، تاركين أمر ذلك إلى القارئ المحقق، وهذا أمر لا يماري فيه مدقق، وعلى المنكر البرهان. ورغم أن الروايات التي عولت عليها جاكلين شابي ضعيفة ومنقطعة، تراها تركن إليها معرضة عما بين أيدينا من روايات متواترة حول تدوينات القرآن الكريم المختلفة، التدوين النبوي(2)، والتدوين البكري، والتدوين العثماني، وانتشاره في الآفاق انتشارا يحيل تحريفه وتغييره، وإجماع الصحابة من بعد على صحة الجمع القرآني وتلقيهم له بالقبول والعناية(3)،

(1) جلال الدين السيوطي، **الإتقان** ١/ ١٦٤.

(2) صحيح البخاري، **كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن**، حديث رقم ٤٩٨٦.

(3) د. لبيب السعيد: **الجمع الصوتي الأول للقرآن**، طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٨=

ومن بعدهم الأمة الإسلامية ومختلف الفرق الإسلامية، وأعلام المسلمين النقاد، فضلا عن القواعد الدقيقة التي وضعها الجهابذة الأعلام لنقل النص القرآني والسنة النبوية الشريفة، وتفادي التمايز بين الروايات المتعارضة كتابية كانت أم شفهية، فلم يبق بعد ذلك كما يظهر إلا الادعاء[1].

ولا تختلف جاكلين شابي في رؤيتها النقدية عما يقرره المفكر الحداثي محمد أركون، ولا عن المستشرق ولش(**Welch**)كاتب مادة(القرآن)في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الجديدة[2]، للتشكيك فيما هو قطعي ومتواتر، وتتداوله ملايين النسخ من المصاحف المطبوعة والمخطوطة في مختلف بقاع العالم. تراها تشكك فيما حفظه المسلمون بأسانيدهم عن ظهر قلب بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ، وهذا ما يجعلنا نرفض رأي جاكلين شابي جملة وتفصيلا، وندير ظهورنا لتمييزها بين القرآنين، الشفهي والكتابي، فليس هنالك إلا الكتاب، فقد تقرر في الروايات المتواترة أن رسول الله ﷺ قد أمر بتدوين النص القرآن، وعنه نقلت الجموع الأخرى، فكيف يصح بعد هذا ادعاء وجود قرآن شفهي تلاه آخر

=ص ٣٢٣.

(١) المصدر السابق.

(2) Encyclopèdie de l'Islam, art ((Quran)).T 5 p: 410.

كتابي؟! كما لا نسلم لها وصف القرآن بالفولجاتا(**Vulgate**)، ذلك الاسم اللاتيني الذي أطلقه القديس جيروم على النسخة التي تولى تحبيرها وجمعها من نسخ الكتاب المقدس ثم ترجمتها، لعدم التناسب الذي يجيز المقابلة والإطلاق، ولا نرى ذلك إلا من قبيل إسقاط المفاهيم المسيحية على مجال البحث القرآني والمحمدي، وتلك نقيصة ينبغي للباحث الجادّ أن ينأى عنها ويتورع.

ولا شك في أن تقريرات جاكلين شابي حول تدوين السنة الشريفة ودور السياسة في تفعيلها قد جانبها الصواب كثيرا، وتكشف أنّها لم تطلع على تاريخ تدوين الحديث، ولا على الجهود الفردية المبذولة التي تصدت لخدمة السنة، رحلة وجمعا وتدوينا ونقدا، معرضين عن أعراض الدنيا، ناهيك عن أبواب السلاطين وخدمة الملوك وسياسات الدول، ولا على ما قاساه أهل الحديث مع جلاد الحكام، فكيف يصح ادعاء أنهم خدام السياسات؟!.

تقرر كل ذلك وتعرض عن محصلات النقد عند علماء الحديث، وما أنجزوه من مناهج نقدية تخدم هذا الغرض، ومبادئ أرسوها لنقد المعارف بشتى أنواعها: الشفهية، والكتابية، كمبدأ العدالة، ومبدأ الاعتبار، ومبدأ المشاركة (حفظ المرويات المنقولة حتى نستطيع التثبت من أمرها مرة أخرى، ونقيم الحجة على المدعي)، ومبدأ الترجيح، وغيرها كثير لا يسمح به هذا المقال، ويقوم حجة

على علمية ما أنتجوا وصدق ما نقلوا، ودونك الواقع فانظر، محدث كـابن حـزم بالأندلس يروي الأحاديث ذاتها التي يرويها البخاري بأذربيجان، فلو كذبوا هل يعقل أن يحصل بينهم وفاق؟؟ ودونك التاريخ فاعتبر، ذهبت دول وخبـت أوار سياسات، والحديث واحد، أليس ذلك دليل على صـحة النقـل وضـبط الـرواة، أليس ذلك حجة على تقول المدعي بلا برهان؟!

وبعد ما أثبتنا تهافت التمييز بين القرآنين، الكتابي والشفهي، وأقمنا الحجة على صحة نقل النص القرآني، وثبوت تدوينه في عهد النبي ﷺ وتـواتره تـواترا يحيل تحريفه واحـتمال تغيـيره إبـان الحكـم الأمـوي، وتـصدي المحـدثين لنقـل أحاديث النبي ﷺ نقلا أمينا، مراعين في ذلـك خـصوصيات المعرفـة الـشفهية واحتمال الخطأ فيها، قبل أن يلتفت إليها المحْدَثون، الأمر الذي يجعل الركـون إلى تصحيحاتهم في كثير من الأحاديث أمرا لازما.

إذا تقرر هذا، تبين خطل التمييز بين صور النبـي ﷺ في المـصادر الثلاثـة المذكورة أعلاه: القرآن الشفهي، والقرآن الكتابي، والحديث النبوي.

أما صورة النبي ﷺ في مصادر الـسير المحمديـة، فهـي وإن جمعـت الغـث والسمين من الروايات – ولا أعرف كتاب سيرة محل إجماع بين النقاد المـسلمين–، ومع ذلك فلا تكاد تختلف في مجملها عما في الـصور الـثلاث الأخـرى كـما تـدعي

جاكلين شابي.

وبعد هذا وذلك، يتأكد أن في تمييز جاكلين شابي بين الصور الأربع تعسف، لا يستند إلى أصيل الأدلة، ولا إلى قوي الحجج، وليس للأنثربولوجيا هنا حق في التفرد بالأحكام، لأنها حينما تتعامل مع واقع تاريخي تصير تاريخا ذا تحليل أنثربولوجي، وهذا ما يلزمه أن يقيم الحجة التاريخية بالاستناد إلى المصادر الموثوقة لا التخمينية، ويحتم عليه الالتزام بأساليب النقد العلمي لا الظني، وإلا لأدلى كل بدلوه ما شاء! فأين هي تلك المصادر الثابتة؟ وأين هي القواعد المحررة؟ ألم تر أن جاكلين شابي قد أقدمت على تحليل وثائق القرآن الكريم والسيرة النبوية، فاعتمدت الغث من الأدلة، وراحت تبني عليها تحليلاتها الأنثروبولوجية، فهل يغني ذلك شيئا؟ أليس ما بني على باطل باطلا كما قال علماؤنا النقاد!

❊ ❊ ❊

المبحث الرابع

النبي التاريخي: قراءة أنثربولوجية نقدية

بيَّنا أن جاكلين شابي تؤكد أن الصورة الحالية للنبي ﷺ هي صناعة إيديولوجية سياسية لا أكثر، تبلورت على يدي سدنة وسلاطين الدولة الأموية، ولم تلبث أن تمخضت عنها العديد من النصوص الرسمية، بما في ذلك القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية، ولذلك ترى أن مهمة استخراج صورة النبي ﷺ التاريخية من بين ذلك الركام المعرفي شاقةٌ للغاية، وتحتاج إلى مزيدٍ من المعرفة بشروط كتابة القرآن الكريم، وسياسة الدولة الأموية، وعلاقاتها مع الإمبراطورية البيزنطية[١]. ولتحقيق ذلك تعيد قراءة الوحي والنصوص الإسلامية، وتحلل ألفاظها في إطار سياق تلقيها، وهذا ما تسميه بالتسييق «**mise en contexte**»[٢]، وتحاول أن تخضعها لطرق النقد التاريخي التي تقترحها العلوم الإنسانية الجديدة[٣].

ولذلك، فقد قامت جاكلين بتحليل فضاء حياة النبي ﷺ «**espace de vie**»،

(1) Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p 35.
(2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p. 19-20.
(3) Ibid.

وتتبعت القرآن الكريم ووسطه الأصلي **«Le Coran et son milieu d'origine»**، وأكدت أن القيام بإجراءات التحليل الأنثربولوجي التاريخي للبيئة العربية **«les procédés d'analyse de l'anthropologie historique»** التي ظهرت فيها النبوة المحمدية، وأوحي فيها النص القرآني، يبين أنها كانت تعيش حياة قاسية للغاية، تهيمن فيها الصحراء على كل شيء، وتتجلي فيها العزلة الاجتماعية عن باقي الحضارات الإنسانية، وتبدو فيها أسمى مظاهر الانغلاق الثقافي(1)، وتتربع فيها أواصر النظام القبلي، وهذا ما أوحى لجاكلين شابي أن تصف كل ما في هذا البيئة بالقبلية، فتراها تقول المجتمع القبلي **«Société tribale»**، والسلطة القبلية**«pouvoir tribal»**(2)، والمعرفة القبلية **«savoir tribal»** (3)، وعرب القبائل**«arabe des tribus»** (4)، والسياق القبلي **«contexte tribal»**(5)، والخرافات القبلية **«légendes tribales»** (6)، والحكاية القبلية **«anecdote tribale»** (7)، والتاريخ القبلي**«histoire tribale»**(8)،

---

(1) Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p 31-32.
(2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p 134.
(3) Ibid, p 133.
(4) Ibid, p 135.
(5) Ibid, p 137.
(6) Ibid, p 162.
(7) Ibid, p 163.
(8) Ibid, p 163.

والذاكرة القبلية «**mémoire tribale**»[1]، والقرآن القبلي «**Coran tribal**»[2]، والإسلام القبلي «**islam tribal**»[3]، تقول ذلك دون أن توضح معنى القبيلة، رغم أنها كلمة مفتاح في بحثها، بنت عليها كل مفاصل كتابها، وجعلتها مدار جل تحليلاتها كما أشرنا آنفا، وعاودت تفسير القرآن في ضوئها كما سنرى، وهذا ما يوقع القارئ في حيرة من أمر توظيفها، كيف يتم ذلك في بحث أكاديمي، ولا يتحرر اللفظ تحريرا يرفع اللبس والتأويل.

ويبدو من السياقات المشار إليها أنها تعني بالقبلي هنا البدو«**nomade**»، كما يظهر في العديد من الصفحات[4]، وذلك ما يبيّن بعد الباحثة عن الصواب، إذ إن مكة المكرمة آنذاك مدينة حضرية بالمعنى الأنثربولوجي، وانظر لما يقوله كبير مؤرخي الجزيرة العربية، الدكتور جواد علي: (يقسم أهل الأخبار قريشاً إلى: قريش البطاح، وقريش الظواهر، [...]، ويبدو من وصف أهل الأخبار لقريش البطاح، أنهم إنما سُمّوا بالبطاح لأنهم دخلوا مع قصي البطاح، فأقاموا هناك. فهم مستقرون حضر، وقد أقاموا في بيوت، مهما كانت فإنها مستقرة، وقد انصرفوا إلى التجارة وخدمة البيت، فصاروا أصحاب مال وغنى، وملكوا

(1) Ibid, p 165.
(2) Ibid, p 406.
(3) Ibid, p 407.
(4) Ibid, p 123, 280; 419, p. 577-578.

الأملاك في خارج مكة، ولا سيّما الطائف، كما ملكوا الإبل، وقد تركوا رعيها للأعراب. وعرفوا أيضا بقريش الضبّ للزومهم الحرم. وأما قريش الظواهر، فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً، أي إنهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر. وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال، وأنهم يقاتلون عنهم وعن البيت. ولكنهم كانوا دون «قريش البطاح» في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه، لأنهم أعراب فقراء، لم يكن لهم عمل يعيشون منه غير الرعي. وكانوا دونهم في مستوى المعيشة بكثير وفي الوجاهة بين القبائل. ومع اشتراكهم وقريش البطاح في النسب، ودفاعهم عنهم أيام الشدة والخطر)[1].

ويقول رحمه الله أيضا في وصف حال مكة: (وقد تمكنت مكة في نهاية القرن السادس، وبفضل نشاط قريش المذكور من القيام بأعمال هامة، صيّرتها من أهم المراكز المرموقة في العربية الغربية في التجارة، وفي إقراض المال للمحتاج إليه. كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة، واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لأن تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجي ورأوا ما في بيوت

---

(١) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، (بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٥)، ج٤، ص٤٠٧-٤٠٨.

أغنيائه من ترف وبذخ وخدم وإسراف)[1]، فمكة قريش ليست بدوية كما يستنتج من جاكلين شابي، وهذا ما يثبت أنها أبعدت كثيرا في تحليلاتها النقدية، ولم توفق في تمثل أدوات الأنثربولوجية التحليلية في وصف البيئة المحمدية.

وتبعا لذلك، تستنتج جاكلين شابي أن الفترة التي بعث فيها النبي ﷺ والتي تليها، فترة يسودها المنطق العجائي، وتقوم على الثقافة الشفهية، شأنها شأن الثقافة البدوية، ولا تلتفت هنا لما روي من تدوين للقرآن الكريم، ولا للذين يعرفون القراءة في قريش، ولا لعلم بعض الصحابة بالقراءة والكتابة وإلمامهم ببعض اللغات كما هو معروف، لأن الثقافة كما تزعم بدوية لا تسمح بذلك[2]، ولم يتغير الوضع في نظرها حتى خرج الإسلام من وطنه الأصلي إلى باقي ربوع الدنيا بغية الفتح، لتأسيس المجتمع الإمبريالي المعقد **«une société impériale complexe»**[3]، فعرف الكتابة آنئذ، وصار حضارة كتابية (نسبة

---

(١) المصدر السابق، ص٤٠٥.

(2) Chabbi, Le Seigneur des tribus. L’islam de Mahomet, p 177.

(3) L'histoire de cette période demeure entièrement à écrire de ce point de vue. L'entreprise est d'autant plus difficile que, dans la société d'origine de l'islam, l'oralité l'emportait sur l'écriture. C'est seulement lorsque l'islam fut sorti de son milieu originel, à la faveur de la conquête du Proche et du Moyen-Orient, de l'Égypte, du Maghreb et du monde iranien, qu'il devint civilisation d'écriture, à la faveur aussi de la construction d'une société impériale complexe. Ibid.

للكتابة هنا)«**civilisation d'écriture**» [1].

وأيا كان، ففي هذا الوسط الطبيعي الثقافي وجد النبي ﷺ وترعرع، لا تماري في ذلك جل الدراسات الاستشراقية، كما لا تماري في (حدوث شيء بين مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة] في بداية القرن السابع الميلادي، عندما تجاوزت القبائل العربية حدود بيئتها التقليدية، حيث ولد الإسلام حوالي٦٣٢م) [2]، وحيث كان النّبي ﷺ قد توفي، اعتمادا على ما ورد في الروايات الإسلامية، وعلى عدم ورود ذكره في سجلات الدول والإمبراطوريات التي دخلت تحت حكم المسلمين تدريجيا [3]، وإلا فإنه لا قيمة للروايات الإسلامية.

وتذكر جاكلين شابي أن قبيلة النبي ﷺ - بني هاشم- إحدى بطون قريش، كانت تتولى الحفاظ على البيت العتيق، وإدارة الحج المحلي، وهذا ما جعل وضعهم الاجتماعي المالي يتدهور كثيرا، مقارنة مع غيرها من القبائل القرشية التي أثرت من تجارات القوافل [4]. تؤكد ذلك جاكلين شابي، رغم أن

(1) Ibid.
(2) «Il s'est passé quelque-chose entre La Mecque et Médine au début du VII° siècle. Lorsque les tribus arabes font irruption hors des limites de leur habitat traditionnel, vers 632, l'islam est né. », p179.
(3) Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p43.
(4) Ibid.

النصوص وافية على اشتغال بني هاشم بالتجارة أيضا[1]. ولا يخفى أنها تريد هنا أن تثبت للدعوة المحمدية جذوراً قبلية وأبعاداً اقتصادية، وهذا ما يتناقض مع خطاب الدعوة الإسلامية، ألم تر أنه لم يجعل لبني هاشم خصوصية إلا المودة في القربى كما معروف؟!

ويظهر من تحليل جاكلين شابي، أن الدعوة المحمدية لم تكن واضحة المعالم في ذهن صاحبها ﷺ، ولا فكر في أن يكون نبيا، وإنما هو القدر الذي صيّره كذلك؛ فلم يدع ﷺ في البدء أنه نبي ولا رسول، وإنما «نذيرٌ» لقبيلته، «ملهمٌ» «**Avertisseur tribal inspiré**» استئناسا بما ورد في سورة المدثر وغيرها، و«صاحبٌ» لهم (تقصد لقريش) من أصلابهم، استنادا لورود ذلك في سورتي التكوير(آية٢٢) والنجم(آية٢)، وهذا ما يعني في نظرها أن فكرة النبوة لم تتبلور في ذهن النبي ﷺ آنذاك، فضلا عن فكرة الرسالة[2]، وبذلك تجعل الدعوة المحمدية في العهد المكي الأول امتدادا طبيعيا لمعتقدات قريش لا أكثر، وما عداه من المعاني فدخيل عليها في مراحل تالية كما سنرى.

(١) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٤، ص٤٠٧-٤٠٨.

(2) «Nul n'est avertisseur en son pays ? L'adage qui se dit habituellement des prophètes pourrait s'appliquer parfaitement à cette surdité collective de la tribu mekkoise. « Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p156.

وعمدة جاكلين شابي هنا كما رأينا ورود كلمتي «الصاحب» و«النـذير» في القرآن الكريم الأول، ولا يسلم لها ذلك بحال، ألم تعلم أنها قد وردت في السور المكية والمدنية معا، فقد ذكرت في سورة البقرة (آية١١٩) على سبيل المثال، وانظر في المصحف وحقق؛ لتتأكد أن فكرة النبوة ماثلة في السور المكية لا كما تزعم، ودونك سورة الطارق(آية٧) فقد وردت فيها كلمة «النبي»، كما وردت في سورة الأحقاف (آية٢١)، وسورة المطففين(آية١١) وغيرها كثير. كما وردت كلمة «رسول» في القرآن المكي، في سورة التكوير(آية١٩)، وسورة المزمل(آية١٥)، وسورة الحاقة(آية٤٠)، وغيرها كثير، وهذا ما يبين أن قولها تحكم لا يمت إلى الاستقراء المتأني بشيء.

والعجيب في تحليل شابي أنها اعتمدت كلمة «صاحب» الواردة في سورتي التكوير والنجم للدلالة على أنه لم يوصف بالنبي، مع أنه قد ورد في السورتين ما يثبتها، فقد قال تعالى في التكوير: ﴿ **إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ (آية١٩)، وقال في النجم: ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ (آية٢-٤)، فاستدلت بـ«الصاحب» وتركت «الوحي»، فكيف غفلت عنها؟! وما كان ينبغي أن تسلك هذا المسلك في الإثبات! كان يجب عليها الاستقراء التام للقرآن المكي ومعانيه، ودراسة ألفاظه دراسة دلالية تعالقية؛ إذ

اللفظة تحمل من المعنى في سياق غير ما تحمله في سياق آخر، وقد أبدع توشيهيكو إيزوتسو في تحليل لغة القرآن، سيما في كتابه: «**الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم**»[1]، فهو مثال يحتذى في الدقة والأمانة العلمية، وفي تحقيق مثل هاته المسائل الدلالية، وإن كانت له بعض الهنات، لا يتسع المقام لذكرها.

وتذكر جاكلين شابي أن نصوص العهد المكي تبين أن النّبي ﷺ لما شرع في دعوة قومه تلقوه بالرفض والنبذ، واتهموه بمس الجنّ، لما رواه لهم من اتصال بالسماء[2]، وهذا ما يعني في نظرها وفي نظر كثير من الحداثيين العرب أن قريش قد عرفت حاله واستطاعت تصنيفه[3]، ولا نسلّم لهم استنتاجهم ألبتة؛ ألم تعلم أن قريش قد اتهمت النبي ﷺ بأمور كثيرة مشهورة، فقالوا: شاعر، وقالوا به جنّة، وقالوا ساحر، وقال مجنون، وقالوا ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، وقالوا أساطير الأولين، فلم تُذكر بعضها وتترك بعضا؟!، مع أنه يثبت بالتجميع مالا يثبت بالتفريق. إن ذكر جميع التهم جنبا لجنب يؤكد أن قريش احتارت في

(١) طوشيهيكو إيزوتسو، **الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم**، تر هلال محمد الجهاد، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧).

(2) Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p156.

(٣) على سبيل المثال عبد الله إبراهيم، **التلقي والسياقات الثقافية**، (لبنان-الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٣).

تصنيف حالة النبي ﷺ، ولم تجد لها تأويلا مقبولا بِكبرِها.

ولم تكن دعوة النبي ﷺ في هذه المرحلة كما تدعي جاكلين شابي إلا إنذارا لقبيلته من شر وشيك[1]، ومن المرجح في نظرها أن (هذا الرجل –أي النبي ﷺ– كان يدعو الناس إلى إله واحد، كالذي يوجد بين اليهود والنصارى، ويتمنى استعادة قيم التضامن الاجتماعي بين ظهراني قبيلته، التي أثرى بعض رجالاتها كثيرا)[2]، فدعاهم إلى نبذ القبلية، والتحلل من الغنى الفاحش، وتحرير المرأة[3]، واتباع ملّة الآباء[4]، فرفضوا خطابه، وما اتبعه إلا قليل، ولم يلبثوا أن دخلوا معه في صراع طويل ومواجهة عنيفة[5]، وتفسر جاكلين

(1) «Le discours qui est tenu par Mahomet se définit d'emblée comme étant d'«avertissement» (indhâr). Il s'agit de prévenir la tribu d'un danger imminent», Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie, p35.

(2) «Il est probable que cet homme, qui prêchait pour un dieu unique tel qu'il existait déjà chez les juifs et les chrétiens, souhaitait rétablir des valeurs de solidarité dans sa tribu, dont certains membres s'étaient trop enrichis, Ibid.

(3) Ibid, p156.

(4) «Ainsi, la démarche initiale de Mahomet s'est-elle opposée sur ce plan, de façon frontale, aux réflexes culturels des hommes de son monde. Contre son innovation inouïe, le texte coranique rappelle comme en écho la doctrine des hommes de la tribu: «[C'est] la voie suivie par nos pères [et nulle autre qu'il faut suivre] Coran» Ibid, p316.

(5) Ibid.

شابي ذلك بطبيعة القبلي الفظة(1)، ومهما يكن فقد انتهت مواجهته بهجرته إلى المدينة المنورة(2).

وقد جانبت جاكلين شابي الصواب في تحديد مضمون الدعوة المكية، ودونك السور المكية، لتعلم ما فيها من عقائد؛ ألوهية، وملائكة، ونبوة، وكتب منزلة، وبعث، وشرائع، وأنبياء، احتفى بها القرآن المكي، حتى صار مشهورا بين النقاد أن كل سورة فيها قصص الأنبياء فهي مكية، ومع ذلك فالباحثة لا ترى في النبي ﷺ إلا مصلحا في دين قبيلته لا أكثر، وأنى لها ذلك؟!

وتبين جاكلين شابي أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة المنورة ألفى شهرته قد سبقت إليها، فلجأ عند بعض القبائل، ولم يلبث أن دخل عالم السياسة، فأسّس كونفدرالية قبلية(**confédération tribale**)، تجمع قبائل العرب تحت راية واحدة، ودعا القبائل والبدو إلى دخول في عهد مع ربه(3)، إذ تبيّن له أنّها تتدين بأديان متقاربة، فقد كانوا جميعهم يعتقدون في إله واحد، يسمونه ربا، وقوة مذكرة أو مؤنثة للحماية والتعويض، لها صلة بالأراضي القبلية المملوكة، ويتخذون لها بيتا كالكعبات، والحجارة المقدسة كالحجر الأسعد مثلا، فأراد

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

النبي ﷺ في زعمها أن يوحد كلمتها تحت عبادة ربٍّ واحدٍ، وكعبةٍ واحدةٍ، وحجارة مقدسة واحدةٍ(1)، ودليلها أن العرب قد أطلقت كلمة الربّة(مؤنثة رب) على الأصنام، كاللات والعزى، واتخذت لها كعبات مختلفة، تضع فيها أصنامها المقدسة(2). وقد أبعدت جاكلين شابي هنا كثيرا، فما عرف عن العرب أنها سمت اللات والعزى ومناة الثالثة ربات(3)، فمن أين لها هذا؟ ولا توجد وثيقة قديمة واحدة تثبت ذلك(4)، وهذا ما يبين أنها تبعد في التخمين والتقول.

وأيا كان، فإن جاكلين شابي تؤكد أن النبي ﷺ دعا القبائل إلى الإسلام دينا واحد، والله رباً واحدا، وإلى الكعبة بيتا مقدسا واحدا، وإلى الحجر الأسعد(الأسود)حجارة مقدسة واحدة، ليوحدهم على كلمة واحدة ودين واحد، وليصير الله - رب النبي ﷺ - ربّ القبائل، وتتأول قوله تعالى: ﴿ **رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ على أن المراد به رب القبائل، لا رب العوالم كما هو شائع في كتب التفسير، ودليلها الوضع في السياق الثقافي القبلي، الذي يبدي أن العالمين بمعنى العوالم لا يعني للبدو شيئا إلا القبائل، وهذا ما جعلها تدعي أن معنى العالمين

(1) Ibid, p44; 222.
(2) Ibid.
(3) Christian Robin, Filles de Dieu» de Saba’ à La Mecque: réflexions sur l’agencement des panthéons dans, l’Arabie ancienne, Semitica, 50, 2000, p. 113-192.
(4) Ibid.

هنا هو القبائل[1]، ولذلك فقد عنونت به كتابها: (**رب القبائل، إسلام محمد**)، تريد برب القبائل رب العالمين، معرضة عما تقرر في كتب التفسير، ونائية عما تحرر من طرق نقدية تصلح لتحقيق دلالة اللفظ، كالتفسير بالمأثور، وعلم الدلالة، والسياقات، إلا فإن لفظة العالمين قد وردت في القرآن الكريم (٧٣) مرة، (٤٢) مرة منها بالإضافة إلى رب، و(٣١) منها في سياقات أخرى، لا يستقيم فيها معنى القبائل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾، وسياقات وردت في إطار حديثها عن الأنبياء الآخرين. وبعد هذا وذاك، كيف يصح لجاكلين شابي أن تدعي أن القرشي ضيق الأفق، لا يعرف من العوالم إلا القبائل، ألم يعرف الحبشة والفرس؟ ألم يهاجر إلى الشام والعراق؟ ألم يعرف إماء من الروم والهند؟ ألم يسمع عن عالم الجن والغول؟ وكلها سياقات لا تعلق لها بالقبائل.

وبالطريقة نفسها، طريقة الوضع في السياق(**Mise en contexte**)، أعادت تفسير الإسلام بدين القبائل، كما أعادت قراءة الكلمات الأساسية للمعجم الإسلامي، كالله، والنبي، والبيت (الكعبة)، معتمدة على توظيف فقه

(1) «elle ne signifiait rien dans une société de tribus qui n'avait aucun moyen de se représenter «des mondes» différents du sien», Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'islam de Mahomet, p 645.

اللغة (فليلوجيا)[1] بطريقة تاريخية تخمينية، تلك الطريقة التي أكد معاصرها، توشيهيكو إيزوتسو، أنها لا تفيدك إلا الظن في أغلب أحوالها، ولا تصلح لتحقيق مثل هذه المسائل تحقيقا علميا، ولذلك فقد اقترح أن نستند إلى طريقة علم الدلالة ومناهجه، وبنى عليها كتابه المشهور: «**الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم**»، بين فيه الفرق الشاسع بين دلالة هذه الألفاظ في المعجم القرآني ودلالتها في السياق العربي الجاهلي[2]، وبصر فيه بعقم مسلك جاكلين شابي ومن ينتهج نهجها، وصحح فيها كثيرا من تحليلات تراثنا الإسلامي، وهو كتاب جدير بالتثمين.

ويظهر من كل هذا، أن جاكلين شابي تريد أن تنزع القداسة عن سيرة النبي ﷺ كلها، وتؤنّسنه مرة أخرى، وتُصوره كمصلح اجتماعي، حاول أن يحقق أسطورة، دعا قبيلته إلى دين آبائها أولا، ثم دعا القبائل العربية الأخرى إلى التوحد على دين آبائه، ليصير الله ربه رب العالمين «**seigneur des tribus**»، أي رب القبائل كما فسّرتها الباحثة، وعلى ذلك تَحمل العديد من الشرائع الإسلامية، كالحج مثلا، فنجدها تفسره جمعا بين الحجّين الذين سادا في بيئة

---

(١) سبق التعريف بها.

(٢) توشيهيكو، **الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم**، ص٢٩-٥٠.

العرب، ارتآه النبي ﷺ ليُلملم شمل القبائل العربية، وهذا ما يجعل الحج مشروعا سياسيا أكثر مما هو مشروع ديني، وتقليدا جاهليا أكثر مما هو تشريع إسلامي بحت(1).

ويتجلى هنا جيدا أن جاكلين شابي قد قرأت أحكام الشريعة وأحداث السيرة النبوية -صلى الله على صاحبها- قراءة سياسية حائفة، إذ الدعوة الإسلامية كما تفيد نصوص القرآن المكي لم تقتصر على قبيلته ﷺ، تراها تعاملت مع الإنسان مطلقا، ودعته إلى مفاهيم لا تجد فيها مكانا للقبلية، فدونك الألوهية، والخلق والبعث، والمسؤولية، والقضاء والقدر، وعالمية الدعوة، ودونك المعجم القرآني المكي، حقِّق فيه، وانظر، هل تجد فيه أثارة للقَبَلية. وعيب الباحثة هنا أنها وظفت منهج فقه اللغة بطريقة تخمينية، وأعرضت عن التحليل الدلالي المعمق، كما فعل توشيهيكو في كتابه المشار إليه آنفا، وأعلامنا النقاد من قبل.

وترجع جاكلين شابي انتشار الإسلام، إلى كثرة غارات النبي ﷺ المكللة بالانتصارات الباهرة، فقد جلبت له أتباعا كُثُرا من مختلف القبائل، استطاع

(1) Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, (www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp) (20/01/2010).

بحنكته أن يلملم شملها تحت لواء واحد، لواء رب العالمين[1]. كأن المسألة نصر في الحروب فقط، لا تعلق له بالدين ألبتة. ولا أستطيع أن أفهم جاكلين شابي في ضوء طريقتها، كيف استطاع النبي ﷺ، وهو المهاجر الضعيف المجبر، أن يجمع القبائل على كلمة واحدة بين عشية وضحاها، ويفرض عليها من الأحكام الشرعية الشيء الكثير، أليس ذلك دليل على خصوصيةٍ لهذا الدين وخطابه؟ لِمَ لم تجتمع القبائل العربية المشتتة دهرا طويلا حتى جاء النبي ﷺ، فجمعهم على كلمة الإخلاص والتقوى، وهم البدو المغلقون دهورا طويلا كما تصفهم جاكلين شابي؟ ما الذي غيّر حال البدوي المنعزل، فصار حضريا يؤمن بقيم الجماعة؟ أليس هذا اختزال ينبغي أن ينأى عنه البحث العلمي الجاد، سيّما في درس الأنثربولوجيا الذي ينشد النظرة الكلية في التحليل.

وتؤكد جاكلين شابي أن النبي ﷺ أراد أن يلحق بوحدة القبائل العربية القبائل اليهودية، فتبنى إرثهم وصورهم التوراتية، وأخبار أنبيائهم، وعرض عليهم دعوته في المدينة المنورة فرفضوا[2]، فصار يعاملهم كمنحرفين، أضاعوا كلمة الله الأصلية تحريفا وتبديلا، وهذا ما عرضهم لتحريض قرآني وتحامل نبوي، وتشريد سياسي، واضطهاد في وقت لاحق، ومحاولة تجاوزهم بالدعوة

(1) Ibid.
(2) Ibid.

للتمسك بالفكرة الإبراهيمية، وبعد ذلك بكثير، ادعى المسلمون أن النبي محمد ﷺ من أتباع إبراهيم ﷺ[1].

ويظهر هنا أن جاكلين شابي، لم تستطع أن تتحرر من ثقافتها اليهودية، ولا من تحيزها مع بني دينها، ألم تر أنها تشكك في كل ما ترويه الروايات الإسلامية وكتب التاريخ المشهورة عن علاقة اليهود بالنبي ﷺ، وما جرى بينهما؟! وما كان ينبغي لها أمام الكم الهائل من الروايات المشهورة المؤيدة. وبالمقابل فقد ادعت أن النبي ﷺ تولى أنبياء اليهود إرضاء لهم، مع أن المقارنة بين النصوص القرآنية واليهودية تثبت التباين بينهما، فلا قصص القرآن الكريم تشبه قصص التوراة، ولا العقيدة العقيدة، ودونك قصة آدم ﷺ، انظر مسارها في النص القرآني، ثم عج على التوراة، هل تجد بينهما شبها، فكيف تدعي مع ذلك المجاملة؟! وحقق في آيات الذكر الحكيم، تجد نقد القرآن لليهود ظاهرا من بداية العهد المكي؛ فلو تولاهم لاسترضاهم، والحال غير هذا، إن ذلك دليل على بطلان ادعاء المجاملة والاسترضاء.

ولقد أبعدت جاكلين شابي في دعواها تولي النبي ﷺ إبراهيم في المدينة عقب رفض اليهود الدخول في دينه، رغم توفر العديد من الحجج القوية على

---

(1) Ibid.

فساد ذلك، ألم تعلم أن قصة إبراهيم ﷺ قد وردت في القـرآن المكـي كنمـوذج للاحتذاء، وسورة الأنعام (آية١٠٨، ١٦١)، وسورة يوسف(آيـة٣٨)، وسـورة إبراهيم بكاملها، وما ورد في سورة البقرة من تول له يسير على النسق نفسه، فـلا تحوّر في الخطاب، بل توضيح ومزيد بيان، وهذا مـا يبـين عـدم مراعـاة جـاكلين شابي لتاريخ النـزول القـرآني، ولا لقواعـد تحليلـه، فكيـف تتـدعي بعـد ذلـك العلمية؟ وكيف تتوقع بعد ذلك أن يحظى كلامها بالترحاب.

* * *

الخَاتِمَة

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

إلى أي حد يمكن أن نقول إن جاكلين شابي قد وفقت في بحثها؟ لقد ألفت جاكلين شابي كتابها بلغة راقية، وطريقة في التحرير مدهشة، اتسمت بالخصائص التالية:

١. تكمن أهمية جاكلين شابي في تجاوزها ما هو مألوف في مناهج جامعاتنا الإسلامية، ومحاولة تقديم دراسة أكاديمية جديدة، تقرأ السيرة النبوية الشريفة قراءة أنثربولوجية، مجارية في ذلك الاتجاه الاستشراقي العام الذي صار يحتفي بهذه القراءة على حساب باقي القراءات النقدية، كالتحليل اللساني والنقد الدلالي والبحث الموضوعي والدرس المقارن للنص القرآني، لأمر في نفوسهم.

٢. وظفت جاكلين شابي منهجا مركبا في تحليلها السيرة المحمدية، وتسلحت بالعديد من العلوم الإنسانية، من آثار وتاريخ وعلم نفس واجتماع وأنثربولوجيا، وارتوت من مناهجها ومفاهيمها النقدية التي أشرنا إلى بعضها في غضون هذا البحث، وهي ميزة لها، لا يوازيها في ذلك أحدٌ إلا محمد أركون.

وبالمقابل فقد أهملت العلوم الإسلامية الأصيلة من غير تبرير يستحق الذكر، فلا تكاد تجد توظيفا لعلوم القرآن الكريم، ولا لعلوم الحديث الشريف في تأريخ النصوص وفرز الروايات، ولا لمناهج الأصول في تحليل الدلالات والنصوص، كما يتبدى ذلك في توثيقها للنص القرآني، وما كان ينبغي لها أن تعزف عنها، سيما في مثل هذه الموضوعات، فهي علوم أثبتت معقوليتها وأصالتها النقدية.

٣. استخدمت جاكلين شابي طريقة فقه اللغة(التحليل الفليلوجي) في دراسة سيرة النبي ﷺ، وجعلتها أساسا للعديد من استنتاجاتها النقدية، كتحليلاتها العجيبة لكل من: رب العالمين، والإسلام، والله ﷻ، واعتمدت على ما سمته بالتسييق (الوضع في السياق)(**Mise en contexte**)، ولا تعدو تطبيقاتها عن أن تكون قراءات ظنية تخمينية، لا تقوم على أساس من النقل، ولا على بيان من الاستقراء، كما ألمحنا في أثناء هذا البحث.

٤. تبين لنا إتقان جاكلين للأنثربولوجيا التاريخية، واتضح قصورها في تطبيق مفاهيمها النقدية، كما رأينا في تحليلها لطبيعة المجتمع المكي، وفي تحريرها للشفهي والكتابي من القرآن الكريم، وفي تمييزها بين الصور المحمدية المتعددة، وفي توثيقها للعديد من القضايا النبوية، وهذا ما كان له أثر كبير على قيمة نتائجها النقدية.

٥. اتضح لنا قصور جاكلين شابي في استقراء العديد من القضايا القرآنية، ومن ذلك ما ألصقته من خصائص بالقرآن المكي، كنفيها لوجود الفكرة الإبراهيمية فيه، وادعائها وجود تطور عقدي في الوحي المكي، وخطلها في تغير الموقف المحمدي من اليهود، وغيرها من المسائل التي تطعن في مصداقية الباحثة، وقيمتها النقدية؛ إذ مثل هذه الأخطاء لا تغتفر في دراسة أكاديمية، وتشكك في نزاهتها العلمية.

٦. ظهر أن الباحثة ادعت، بناء على روايات ضعيفة، أن القرآن الكتابي غير القرآن الشفهي، وأن الدولة الأموية طوعت القرآن الشفهي خدمة لأطماعها السياسية، وبينا خطلها وضعف أدلتها، وخضوعها للنظريات الاستشراقية دون ترو، وكان يمكن لها أن تتجاوز كل ذلك لو تريثت في نقد وثائقها وتخريجها تخريجا علميا.

٧. أقمنا الحجة على أن مستندات جاكلين شابي في التأسيس لنظرية أسطورة النبوة المحمدية لا تقوم على أدلة محررة علميا، وأثبتنا حيفها وتحاملها في بحثها الأكاديمي، وبينا بالبرهان تحيزها العلمي مع بني دينها، اليهود، ويمكننا أن نتساءل عن خلفيات اعتماد هذا البحث وإجازته، أهو التحيز المقيت، أم هو تدني مستوى الدراسات الإسلامية في الجامعات الفرنسية؟ وما سبب تهويل

المفكرين الحداثيين في الغرب والشرق بأمر الباحثة وخطورة نتائجها، أهو التواصي باللغو في النبوة والقرآن الكريم الذي أشار إليه من قبل الذكر الحكيم، أم هو القصور العلمي في مناهج تحقيق النصوص الإسلامية؟ ولعل في هذا ما يثبت أن المشكلة ليست في النقد الأنثربولوجي للسيرة النبوية، بقدر ما هي في الباحثة، لنجد أنفسنا مرة أخرى أمام مظاهر أزمة الدراسات المحمدية المعاصرة التي أشرنا إليها في أثناء هذا البحث.

ولقد كان يمكنها أن تبدع في تحليلها الأنثربولوجي للسيرة النبوية، لو أحسنت توظيف العلوم الإسلامية في توثيق النصوص وتحليلها، وأفادت من علم الدلالة واللسانيات في تحليلها النص القرآني، ونهلت من مقارنة الأديان في عقد المقارنات بين القرآن الكريم والتوراة، وبين الإسلام والديانات الجاهلية، لوفعلت لأفادت ولأجادت، إذ العلوم تكمل بعضها بعضا، وتؤتي الصورة كاملة، فليس العيب في البحث بل العيب أن تأتي بقلب غير سليم، ولن يفلح ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وبعد كل هذا أعترف بأن ما عرضته في هذا البحث ليس كافيا لنقد كل ما ذكرته الباحثة جاكلين شابي حول سيرة المصطفى ﷺ، وما زالت تحتاج لمزيد من التتبع والنقد، علّ الله العلي يوفق لإصدار كتاب – في القريب – حول جهود

هذه الناقدة والمعاصرين في الجامعات الفرنسية.

وأخيرا لا يفوتني أن أنبه إلى ضرورة الاشتغال بهذه المجالات العلمية الجديدة، والتمكن من رؤاها النقدية، والإلمام بمناهجها وأدواتها التحليلية، فنحن في حاجة ماسة إلى العلم بأنثربولوجيا البيئة العربية القديمة، وأنثربولوجيا السيرة المحمدية، ولسانيات الخطاب القرآني الكريم والحديث النبوي الشريف وسيميائياتهما، وغيرها من المباحث الجديدة، لنكون على بصيرة مما عندنا، وعلى علم بما يكتب حولنا، وقادرين على النهوض بالشهادة الشرعية على عصرنا؛ فإما أن نملأ هذا الفراغ المعرفي على بصيرة، وإما أن يملأه غيرنا على جهل وحيرة، ناهيك عمن يكيد لنا جملة وتفصيلا.

لقد صارت هذه المجالات والمناهج علوما ومناهج إسلامية بالضرورة، يحتاجها المتخصص في أصول الدين كمنهاج لوعي الذات والإسلام، والذود عنه، أحببنا أم كرهنا، فأين المتخصصون في هذه المجالات؟ وأين مراكزها في الجامعات الإسلامية؟ وأين مقرراتها في أقسام أصول الدين؟ وأين مجلاتها العلمية؟ وأين دراساتها العليا؟ إنها مهمة كل من يدعي محبة رسول الله ﷺ وآله، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

***

قائمة المراجع

أولاً: الدراسات الأجنبية:

(1) Encyclopédie de l'Islam, 2ème édition 1985.
(2) Jacqueline Chabbi, Le Seigneur des tribus. L'Islam de Mahomet, (Paris: Noêsis,1997)
(3) Jacqueline Chabbi, Le Coran décrypte: Figures Bibliques en Arabie (France: ,Fayard, 2008)
(4) Rubin, Coll. «The Formation of the Classical Islamic World», vol. 3 et 4, Variorum, Ashgate, 1998).
(5) P.M. Bogaert, La Bible latine des origines au Moyen Age. Aperçu historique, état des questions, Revue théologique de Louvain, 19, (1988)

ثانياً: الدراسات العربية:

(٦) ابن سعد، **الطبقات**.

(٧) جلال، الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٣).

(٨) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، (بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٥).

(٩) لبيب السعيد: **الجمع الصوتي الأول للقرآن**، (القاهرة: طبعة دار المعارف، ١٩٧٨).

(١٠) محمد أركون، **الفكر الأصولي واستحالة التأصيل**، تر: هاشم صالح، (بيروت: دار الساقي، ط١، ٢٠٠٢).

(١١) ـــــــ، **قضايا في نقد العقل الديني**، تر: هاشم صالح، (بيروت: دار الطليعة، ط١، ٢٠٠١).

(١٢) محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح**.

(١٣) عبد الله إبراهيم، **التلقي والسياقات الثقافية**، (لبنان-الجزائر: منشورات الاختلاف،ط١، ٢٠٠٣).

(١٤) طوشيهيكو إيزوتسو، **الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية الكونية للعالم**، تر هلال محمد الجهاد، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،ط١، ٢٠٠٧).

ثانياً: مواقع الانترنت:

(١٥) هاشم صالح، **الاستشراق وأرخنة التراث**،

(http://www.hadatha4syria.org/news.php?action=view&id=4365) (20/01/2010)

(16) Groupe de chercheurs scientifiques, Documents sur l`Islam, (http://www.islam-documents.org/0.html#footnote77 p7) (20/01/2010)

(17) Jacqueline Chabbi, Une approche Historico-critique, de l'Islam des origines, www.clio.fr/bibliotheque/une_approche_historico-critique_de_lislam_des_origines.asp (20/01/2010)

(18) Revue Science et avenir, La légende Mohométane, Janvier 2003 (http://charlatans.info/mahomet.shtml#ref1(20/01/2010)

❊ ❊ ❊

المحتويات

تم بحمد الله

* * *